ثانياً :

منهج الشيخ في التعامل والتعاون مع العاملين للإسلام.

أ - من هم العاملون للإسلام :

العاملون للإسلام هم خيرة الشعوب ، وأطباء القلوب ، هم أزهار الدنيا ، وورد الحياة ، وعبق الوجود ، وعطر الكون ، هم أحباب الرحمن ، وجنود الديان ، وضياء الأوطان ، ودرر الأزمان ، هم الشمس للدنيا ، والقمر للظلام ، والنجوم للهداية ، هم خلفاء الأنبياء ، وأتباع الأصفياء ، وسعادة الأشقياء ، فالدعوة إلى الله عز وجل هي سبيل الرسل وطريقهم عليهم الصلاة والسلام ، وفي ذلك غاية الشرف والفضل للدعاة أتباع الرسل المقتدين بهم ، السائرين على منهاجهم .

الدعاة هم شموس الأمم فإن أشرقوا شعّت أنوارهم ، وطابت آثارهم ، وزكت أخبارهم ، ينتشر بسطوعهم الدفء ، فيحيي جذور القلوب ، وينعش بذور الدين في الشعوب ، وينمي أوراق الإيمان ، ويوطد أشجار الإحسان، ويذيب جليد الخوف والفقر والحرمان ، وإن خسفت شمسهم، ذبلت الأوراق ، وخفتت الأشواق ، واحترقت الأخلاق ، وتعرضوا بذلك لسخط الخلاق .

هم بدور الحياة . . فإن أضاؤوا استضاء بهم الورى ، وبلغ الركب الذرا ، وحمد القوم السُّرى ، وإن كسفوا وخسفوا عاش الناس في ظلام حالك ، وتعرضت البشرية للمهالك ، وتاهت الأقدام عن المسالك .

العاملون للإسلام هم الغيث الهنيء لواحات القلوب ، ومراتع النفوس، إن هَمَوْا عليها اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، وإن أمسكوا فهو القحط والجدب ، والدمار والخراب ، والهلاك واليباب ، هم سقيا الرحمة لا سقيا العذاب ، هم القائمون لله بالحجة ، والسائرون على

المحجة ، والمناضلون عن الشريعة ، والسائرون على البصيرة، أرض لم يشع فيها نورهم أرض مظلمة ، وبلاد لم يعبق فيها أريجهم بلاد معتمة ، هم الوابل الصيب الطيب ، فإن لم يكن وابل فطل ، إلا أن هذا الوابل الصيب والغيث الهنيء قد يندفع بقوة ، وينحدر بكثافة ، ويرعد ويبرق ويتدفق ويزمجر ، ويهدر وينذر ، ويقتلع الأشجار ، ويدحرج الصخور ، ويهدم المزارع ، ويلحق الأضرار ، ويجلب الأخطار ، ويتلف الأرواح ، ويبث الأتراح ، ويتحول من نعمة إلى نقمة ، وقد يمسك ويشح ، فتجدب الأنهار ، وتذوي الأزهار ، وتموت الأشجار ، ويهلك الحرث والنسل ، ولكن الخير كل الخير ، والرواء كل الرواء ، والهناء كل الهناء هو في هطول ذلك الغيث بقدر ، وتدفقه برفق ، وانسيابه بهدوء ، يُطعم ولا يهدم ، ويغدق ولا يُغرق، ويُخصب ولا يُغضب ، ويطرب ولا يُخرب ، هنيئاً مريئاً سحاً غدقاً سقيا رحمة لا سقيا عذاب ، ديمةً تهمي ، وسحائبَ تروي ، ومزناً تحيي ، وهكذا يكون العاملون للإسلام على بصيرة . . وهم العلماء وطلبة العلم وحملة الهم الإسلامي على وجه العموم سواء العاملون بتكليف رسمي من دولهم كرجال الأوقاف والدعوة والهيئات الإسلامية ، أو العاملون احتساباً لوجه الله تعالى تحت مسميات عديدة ، ومنظمات كثيرة ، وهؤلاء لسنا بحاجة إلى بيان موقف الشيخ منهم ومنهجه في مساعدتهم ، فهو واضح وضوح الشمس في لب السماء ، والبدر في الليلة الخامسة عشرة ، وهل يجهل داعية أو طالب علم أو محب للإسلام موقف الشيخ من أمثاله ، ومعاونته لأضرابه، ولقد زخرت كتب الشيخ ومؤلفاته وأشرطته بروائع في هذا الميدان ، وعجائب من ذلك البستان ، سوف نورد منها شيئاً كثيراً بإذنه تعالى ،

وإن أهمية الكتابة في هذا الموضوع تبدو من ناحيتين:

الأولى: شاهد للتاريخ، فلا بد من رصد هذه المواقف وجمعها في مؤلفات عدة لتبقى قريبة المأخذ، سهلة التناول، تتناقلها الأجيال على مرّ التاريخ، فتفيد من نهجها، وتقبس من نورها.

الثانية: التأكيد بالبيان الجلي لأهم مسألة في هذا الأمر، وهي حرص الشيخ وحبه لاجتماع الكلمة، وتتويج ذلك بقول ناصح، وفعل صالح، ومنهج رابح، والبعد عن كل ما يورث الخلاف، أو يجلب الفرقة، مع سعة الصدر، وروح التسامح، فإن هذه هي التي لا تطاق ولا تحتمل، إلا من أنار الله قلبه، ونقى سريرته، وأخلص نيته، فلا فلاح، ولا نجاح لدعوات لم ينتصر أصحابها على أنفسهم أولاً، ولم يقيموا روح الشريعة في دقائق حياتهم قبل غيرهم، ﴿**وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**﴾[1].

ب - منطلقات الشيخ في تعامله وتعاونه مع العاملين للإسلام:

هذه المسيرة العطرة، وذلك المنهاج الفذ، وتلك السمات الخلابة، وهاتيك المآثر الجذابة التي بدت نوراً متألقاً على محيا الشيخ، وأصبحت درراً مرصعاً بها تاريخه، ومحامد زاخراً بها منهاجه لم تكن من فراغ،

---

(١) سورة فصلت: ٣٥.

ولم تتأت من هباء ، بل جاءت من بصيرة نافذة ، وعقيدة مكينة ، ومنهجية راشدة ، يحددها الإخلاص ، ويدفعها الإيمان ،ويجملها الصبر، ويتوجها الرفق ، لقد انطلق هذا الإمام في مسيرته الربانية ، وخطته الإيمانية من منطلقات ثابتة ، وأسس شامخة ، وقواعد راسخة ، ومنها :

١ - التوجيه القرآني :

سبقت الإشارة مراراً إلى التزام الشيخ الكبير بالقرآن الكريم ، وامتثاله العظيم لأوامره ونواهيه ، ولا ضير في تكرار ذلك فهو أساس الفلاح في حياة الشيخ ، ألا وهو تمثله لتوجيهات القرآن تمثلاً كاملاً ، والأخذ بها مأخذاً جدياً ، ويظهر ذلك في كل جزئية من جزئيات حياته ، وقد تأثر بالقرآن وعمل بتوجيهاته امتثالاً لأمر ربه بالأخذ بأسباب الألفة والبعد عن طريق التفرق والشتات ، والتحزب والخلاف ، يقول - رحمه الله - : « وأنصح أيضاً إخواني العلماء وطلبة العلم وجميع المسلمين بتعظيم وحدة الجماعة والمحافظة عليها أشد المحافظة والحذر من أسباب الفرقة والاختلاف ، وأذكرهم في هذا المقام بقول الله عز وجل : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴾[١] »[٢] .

ويقول - رحمه الله - : « لا شك أن الاختلاف من أعظم البلاء ،

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٠٢ - ١٠٣ .

(٢) الفتاوى ، جـ٧ ، ص : ٢٤٦ .

ومن أسباب إضاعة الجهود ، ومن أسباب ضياع الحق ، فاختلاف الجمعيات والمراكز الإسلامية فيما بينها يضر الدعوة الإسلامية ، والطريق الوحيد أن يجتهدوا في التوفيق فيما بينهم في مطالبهم ، وهي أن يعملوا جميعاً على المطلب الذي فيه عزة الإسلام وسلامة المسلمين ، والواجب على كل جمعية وكل مركز وكل جماعة تريد الآخرة أن يتعاونوا على البر والتقوى ، وأن يخلصوا لله في عملهم ، وأن يكون همهم نصر دين الله حتى يجتمع الجميع على الحق عملاً بقوله تعالى : ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى** ﴾ »[١] .

ويقول – رحمه الله – : « كما نهى رب العزة والجلال أمة محمد ﷺ عن التفرق واختلاف الكلمة ؛ لأن ذلك من أعظم أسباب الفشل وتسلط العدو كما في قوله جل وعلا : ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا** ﴾[٢] ، وقوله تعالى : ﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ** ﴾[٣] .

فهذه دعوة إلهية إلى اتحاد الكلمة وتآلف القلوب . والجمعيات إذا كثرت في أي بلد إسلامي من أجل الخير والمساعدات والتعاون على البر والتقوى بين المسلمين دون أن تختلف أهواء أصحابها فهي خير وبركة ، وفوائدها عظيمة ، أما إن كانت كل واحدة تضلل الأخرى وتنتقد أعمالها فإن الضرر بها حينئذ عظيم والعواقب وخيمة . فالواجب على

---

(١) الفتاوى ، جـ ٣ ، ص : ٢٨٤ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٠٣ .
(٣) سورة الشورى ، الآية ١٣ .

علماء المسلمين توضيح الحقيقة ومناقشة كل جماعة أو جمعية ونصح الجميع بأن يسيروا في الخط الذي رسمه الله لعباده ودعا إليه نبينا محمد ﷺ ، ومن تجاوز هذا واستمر في عناده لمصالح شخصية أو لمقاصد لا يعلمها إلا الله ، فإن الواجب التشهير به والتحذير منه ممن عرف الحقيقة، حتى يتجنب الناس طريقهم ، وحتى لا يدخل معهم من لا يعرف حقيقة أمرهم فيضلوه ويصرفوه عن الطريق المستقيم الذي أمرنا الله باتباعه في قوله جل وعلا : ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ (١) .

ومما لا شك فيه أن كثرة الفرق والجماعات في المجتمع الإسلامي مما يحرص عليه الشيطان أولاً وأعداء الإسلام من الإنس ثانياً ؛ لأن اتفاق كلمة المسلمين ووحدتهم وإدراكهم الخطر الذي يهددهم ويستهدف عقيدتهم يجعلهم ينشطون لمكافحة ذلك والعمل في صف واحد من أجل مصلحة المسلمين ودرء الخطر عن دينهم وبلادهم وإخوانهم ، وهذا مسلك لا يرضاه الأعداء من الإنس والجن ، فلذا هم يحرصون على تفريق كلمة المسلمين وتشتيت شملهم وبذر أسباب العدواة بينهم ، نسأل الله أن يجمع كلمة المسلمين على الحق ، وأن يزيل من مجتمعهم كل فتنة وضلالة ، إنه ولي ذلك والقادر عليه »(٢) .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٥٣

(٢) الفتاوى ، جـ ٤ ، ص : ١٣٦ .

٢ - التوجيه النبوي :

لا يفتأ الشيخ – رحمه الله – في جل كلماته ودروسه عن الوصية بمدارسة سنة النبي ﷺ وتطبيقها والعمل بها في كل جزئيات الحياة ، وقد كانت السنة النبوية قولاً وفعلاً وخلقاً متمثلة في حياة الشيخ بحذافيرها ، وما حاد عنها قيد أنملة ، وكانت تلك وصيته المثلى ، وموعظته الحسنى لجميع المسلمين ، يقول – رحمه الله – : « وأوصي إخواني جميعاً بالقرآن الكريم .. ثم سنة الرسول ﷺ والعناية بها وحفظ ما تيسر منها ، مع إكثار المذاكرة فيها ، ولا سيما ما يتعلق بالعقيدة ، وما يجب على المكلف فعله ، وما يتعلق بعمل الإنسان الخاص به ، فإنه به ألصق ، وعنايته أوجب ، وقد قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾[١] .

ولا سبيل إلى اتباعه ﷺ على الكمال إلا بدراسة سنته ، والعناية بها مع العناية بكتاب الله عز وجل .

وأوصي أهل العلم وطلبته بالعناية بكتب الحديث والإكثار من قراءتها وتدريسها والمذاكرة فيها ، وأهمها الصحيحان ، ثم بقية الكتب الستة ، مع موطأ الإمام مالك ، ومسند الإمام أحمد ، وسنن الدارمي وغيرها من كتب الحديث المعروفة ، ضاعف الله الأجر لمؤلفيها ، وجزاهم عن المسلمين خير الجزاء »[٢] .

هذه العناية العظيمة منه – رحمه الله – بسنة النبي ﷺ جعلته مميزاً

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ٣١ .

(٢) الفتاوى ، جـ ٧ ، ص : ٢٠٩ .

في تعامله وتعاونه مع أهل العلم والدعوة والعاملين للإسلام ، يقول – رحمه الله – : « فالواجب على أهل العلم وعلى كل من يخشى الله أن يقدر هذا الوضع ، وأن يحتسب الأجر عند الله ، وأن يصبر ويتحمل ويرجو ما عند الله عز وجل من المثوبة ، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور الرجال ، ولكن يقبض العلم بموت العلماء ، حتى إذا لم يبق عالم ، اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا » أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .

وبذا يعلم أهل العلم والإيمان عظم الخطر ، وسوء العاقبة ، إذا فقد علماء الحق ، أو تركوا الميدان لغيرهم .

ولا يخفى أن العالم سواء كان قاضياً أو غيره إذا اجتهد فأصاب ، فله أجران ، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد ، كما صح بذلك الحديث عن رسول الله ﷺ . فلا خطر عليه مع الصدق والإخلاص والتحري للحق ، وإنما الخوف والخطر العظيم على من يتهجم على القضاء أو الفتوى بالجهل ، أو يقضي بالجور ، كما في حديث بريدة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « القضاة ثلاثة : قاضيان في النار وقاض في الجنة ، فأما الذي في الجنة ، فرجل عرف الحق وقضى به ، ورجل عرف الحق فجار فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار » أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وصححه الحاكم .

أما من يتحرى الحق ، ويجتهد في العمل به ، ويتحرى النفع

للمسلمين فهو بين أمرين ، بين أجر وأجرين ، كما تقدم بذلك الخبر عن رسول الله ﷺ .

ثم إني أوصي جميع إخواني المسلمين عامة ، وأهل العلم وطلبته بصفة خاصة ، ونفسي بتقوى الله عز وجل في كل الأمور ، والعمل بالعلم بأداء فرائض الله ، والبعد عن محارمه ، لأن طالب العلم قدوة لغيره فيما يأتي ويذر في جميع الأحوال »[١] .

ويقول – رحمه الله – : « وقد يقع الخلل والزلل ، فإذا وقع الخطأ أو الزلل وجب على العلماء أن ينبه بعضهم بعضاً بالأسلوب الحسن ، وبالعبارة الطيبة ، والواجب على أهل العلم والدعاة إلى الله عز وجل تحري الحق بالأدلة الشرعية . .

وأما ما لا يجوز الخلاف فيه فهو ما أوضحته النصوص من الكتاب والسنة ، فإنه يجب على الجميع أن يتفقوا على ما دل عليه الكتاب أو السنة الصحيحة ، وأن يحذروا النزاع والخلاف في ذلك ، وإنما يكون الخلاف في المسائل الاجتهادية التي ليس فيها دليل من القرآن أو السنة ، بل هي محل لاجتهاد العلماء واستنباطهم من القواعد الشرعية – فهذه هي محل الخلاف – ويقال عنها « مسائل الاجتهاد » ومن أصاب فيها فله أجران ، ومن أخطأ فله أجر إذا كان من أهل العلم والبصيرة ، وممن يستطيع أن يجتهد في استخراج الأحكام بالأدلة الشرعية – والمقصود أنه إذا كان من أهل العلم وبذل وسعه في الاجتهاد فهو بين أمرين : إن أصاب

---

(١) الفتاوى ، جـ٧ ، ص : ٢٠٦ .

فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر وخطؤه مغفور- »[١] .

ويقول - رحمه الله - : « قال الله عز وجل : ﴿ **وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ** ﴾[٢] .. ومن أهم التقوى التعاون على البر والتقوى والتواصي بالحق والصبر عليه ، واتحاد العلماء واجتماع كلمتهم على الحق ، وإرشادهم العامة إلى أسباب النجاة وتحذيرهم من أسباب الهلاك ، ومناصحتهم لولاة الأمور وإعانتهم على الخير ، كما قال النبي ﷺ : « إن الله يرضى لكم ثلاثاً : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم »[٣] .

ويقول - رحمه الله - : « فالموجب لهذا هو النصيحة والتذكير عملاً بقوله سبحانه : ﴿ **وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾[٤] ، وقوله تعالى : ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** ﴾[٥] ، وقول النبي ﷺ : « الدين النصيحة » قيل : لمن يا رسول الله ، قال : « لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين ، وعامتهم » ، وقوله ﷺ : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » وشبك بين أصابعه . وقوله ﷺ : « مثل المسلمين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه

---

(١) الفتاوى ، جـ٧ ، ص : ١٢٤ .
(٢) سورة النساء : ١٣١ .
(٣) الفتاوى ، جـ٣ ، ص ٢٤٣ .
(٤) سورة الذاريات ، الآية ٥٥ .
(٥) سورة المائدة ، الآية ٢ .

عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»[١] .

ويقول – رحمه الله – مؤكداً على أهمية اتباع السنة وامتثالها : «والأمر الثالث من الأمور ، هو تعظيم سنة الرسول ﷺ والرغبة في سماعها والحرص على حضور مجالس الذكر التي يتلى فيها كتاب الله وأحاديث رسول الله ﷺ فإن السنة هي شقيقة القرآن ، وهي المفسرة لمعانية ، والموضحة لأحكامه الدالة على تفاصيل ما شرعه الله لعباده . فيجب على كل مسلم أن يعظم أحاديث الرسول ﷺ ، وأن يحرص على حفظ وفهم ما تيسر منها ، وينبغي له أن يكثر من مجالسة أهلها فإنهم هم القوم لا يشقى بهم جليسهم ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ** ﴾[٢] . وقال تعالى : ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا** ﴾[٣] »[٤] .

٣ – الإخلاص والاتباع :

وقد سبق الكلام عن الإخلاص وذكر بعض الآيات والأحاديث فيه ، ولقد كان الإخلاص والاتباع الركنين الأساسيين في انطلاقة الشيخ في تعامله وتعاونه وتوجيهه ومناصحته للعلماء وطلبة العلم ، يقول الدكتور عبد الله الطريقي وفقه الله : «فالمسلم الحق وهو يتعامل مع مخالفه لا بد

---

(١) الفتاوى ، جـ٣ ، ص : ٢٤٤ .
(٢) سورة النساء ، الآية ٨٠ .
(٣) سورة الحشر ، الآية ٧ .
(٤) الفتاوى جـ٣ ، ص : ٢٥١ .

أولاً أن تكون نيته حسنة طيبة خالصة لله لا يبتغي من وراء ذلك أي هدف آخر مغاير كالانتصار للنفس ، وحب الظهور والتعامل والتعصب للرأي المحض ، أو لإمام أو لمذهب أو لجماعة أو لحزب أو غير ذلك ، وهي أهداف تفسد دون شك الرأي وتعكر الموقف ، وتصرف عن الحق .

وثانياً : لا بد أن يكون منهجة في التعامل سليماً موافقاً للشرع ، لا مصادماً ، ولا من بنيات العقول المحضة ، ولا من المبتدعات المنحرفة ، سواء في الوسائل أو الأساليب أو الغايات أو الأحكام مما هو توقيفي .

وهذه بعض الأمثلة التوضيحية :

أ – فمعاملته للكفار لا يجوز أن يكون فيها ظلم وتعدٍّ وغش وكذب ، وخاصةً المعاهد فإنه لا يجوز أن يستحل ما له باسم الصغار مثلاً ، والجزية لا تؤخذ في غير محلها . وعند الحوار لا يجوز سب آلهته فيسب الله تعالى .

كما قال سبحانه : ﴿ **وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ** ﴾[١] .

ولا ينبغي كذلك لعنه وسبه فإن المؤمن ليس بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش البذيء .

ب – وعند التعامل مع المبتدع لا يجوز التعامل معه على أنه كافر ، ولا يجوز الحوار معه بالأساليب الكلامية المحضة البعيدة عن أسلوب القرآن والهدي النبوي .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٠٨ .

جـ- وعند التعامل مع الفاسق لا يجوز شتمه ولا تكفيره ، فقد أتي بسكران إلى النبي ﷺ فضربه النبي ﷺ ، فلما انصرف قال رجل : ما له أخزاه الله؟ فقال ﷺ : « لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم »[١] .

ولا يجوز كذلك تقنيطه من رحمة الله ، بل المطلوب فتح باب التوبة له إن كان الله يريد له الهداية ، ولا التجسس عليه وتتبع عورته وتعييره ، ففي الحديث « يا معشر من أسلم بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه ، لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله »[٢] .

د - وعند التعامل مع أصحاب الهفوات والزلات من أهل العلم والصلاح لا يجوز الإساءة إليهم وتخشين الكلام معهم وإلزامهم بما لم يقصدوا ، كما لا يجوز تتبع عثراتهم وإشاعتها .

وجملة القول أنه لا يجوز التعامل مع أي من هذه الأصناف بغير ما شرع الله ؛ لأن ذلك يتنافى مع الاتباع المطلوب »[٣] .

وهكذا كان الشيخ - رحمه الله - انظر إليه في حديثه عن التعامل مع غير المسلم، حيث يقول - رحمه الله - : « إن من المشروع للمسلم بالنسبة إلى غير المسلم أموراً متعددة ، منها الدعوة إلى الله عز وجل بأن

---

(١) أخرجه البخاري .
(٢) رواه أبو داود في السنن ، كتاب الأدب ح / ٤٨٨٠ .
(٣) فقه التعامل مع المخالف ، للدكتور عبد الله الطريقي ، ص : ٣١ .

يدعوه إلى الله ويبين له حقيقة الإسلام ، ولا يجوز أن يظلمه في نفس ولا في مال ولا في عرض إذا كان ذمياً أو مستأمناً أو معاهداً ، فإنه يؤدي إليه الحق فلا يظلمه في ماله لا بالسرقة ولا بالخيانة ولا بالغش ، ولا يظلمه في بدنه لا بضرب ولا بغيره؛ لأن كونه معاهداً أو ذمياً في البلد أو مستأمناً يعصمه .

ولا مانع من معاملته في البيع والشراء والتأجير ونحو ذلك ، فقد صح عن رسول الله عليه الصلاة والسلام أن اشترى من الكفار عباد الأوثان ، واشترى من اليهود ، وهذه معاملة ، وقد توفي عليه الصلاة والسلام ودرعه مرهونة عند يهودي في طعام اشتراه لأهله»[1] .

٤ - التعاون بلا حدود :

معروف عن الشيخ – رحمه الله – تعاونه الكبير ، وعطاؤه الغزير ، وبذله الوفير ، لكل داعٍ إلى الإسلام في أي أرض أشرقت عليها الشمس ، إنه يبذل لهم كل ما فيه وسعه من مال أو علم أو نصح أو رأي أو وقت ، ولا أظن جمعية إسلامية على وجه الأرض لم تحظَ من الشيخ بدعم وتعاون بأي طريقة كانت ، ولا أظن عالماً أو داعية بارزاً في أنحاء المعمورة لم يمدد له الشيخ بسبب ، أو يرتبط معه من التعاون بنسب ، ولا قام جهاد أو ناضل فئام للحفاظ على هويتهم ، أو لنصرة إسلامهم ، إلا والشيخ أول المتعاونين معهم والداعمين لهم ، وما ظُلِم داعية ، أو أوذي عالم إلا والشيخ من أول المناصرين له ، والساعين معه ، ولو أردنا أن

---

(١) الفتاوى ، جـ٦ ، ص : ٢٨٤ .

نحصي شيئاً من هذه الأمور لطال بنا المقام ، وكلت الأقلام، ولكن كتب الشيخ وفتاواه ورسائله حافلة بشيء كثير من ذلك .

لقد كان الشيخ يؤمن ويعمل بقوله ﷺ : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه » (١) ، وقوله ﷺ : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » (٢)، وقوله ﷺ : « من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته » (٣).

وإليك بعض الشواهد اللطيفة ، والنماذج المختصرة ، التي تدل على هذا التعاون البناء ، والتعامل الوضّاء :

كتب له أحد الدعاة من أمريكا كتاباً فقال الشيخ في جوابه عليه : « ولقد سررنا كثيراً بما ذكرتم من قيامكم بالدعوة إلى نشر الإسلام وبيان فضائله ، والرد على خصومه، وطلبكم إرسال بعض الدعاة من الجامعة الإسلامية لوجود الكثيرين ممن يتقبلون الإسلام عندما يتبين لهم حقيقته ويتضح لهم سمو تشريعاته وعدالة نظمه ، فالحمد لله أن وفقكم للقيام بهذه المهمة الشريفة والهدف النبيل ، نسأل الله أن يزيدكم من الخير والهدى ، وأن ينفع بكم ويجعلنا وإياكم من الهداة المهتدين إنه جواد كريم .

أما ما أشرتم إليه من طلب إرسال بعثة إلى أمريكا للدعوة والتبليغ ، فنفيدكم أننا مهتمون بذلك كثيراً ، ونحن نقدرلكم هذه البادرة الكريمة، وسوف نرسل إن شاء الله من يقوم بذلك عندما يتيسر من

---

(١) أخرجه البخاري .
(٢) أخرجه البخاري وأحمد .
(٣) أخرجه البخاري ومسلم .

يصلح لهذه المهمة ممن يجيد اللغة الإنجليزية ؛ لأن اللغة هي التي تحول كثيراً بيننا وبين ما نريد ، حقق الله لنا ولكم كل ما نصبو إليه من عزة الإسلام وصلاح أمر المسلمين .

وقد أرسلنا بعثات كثيرة إلى إفريقية بجميع أقطارها للدعوة والإرشاد، وكتابة تقارير عن حالة المسلمين هناك ، ودراسة مشكلاتهم والتعرف على الجمعيات الإسلاميةوبذل المساعدات التي يمكن تقديمها لهم ، واختيار الطلبة الذين يحسن ابتعاثهم إلى الجامعة الإسلامية بالمدينة ، وقد نجحت هذه البعثات بحمد الله نجاحاً كبيراً وحققت خيراً كثيراً ، نشكر الله على ذلك ، ونسأله عز وجل أن يوفقنا وإياكم وسائر المسلمين للفقه في الدين والثبات عليه ، وبذل الجهود في الدعوة إليه ، ونشر محاسنه وتعاليمه ، وأن يوفق ولاة أمرنا لما فيه صلاح أمر المسلمين ، وسلامة دينهم ، وجمع كلمتهم ، إنه ولي ذلك والقادر عليه»[1] .

وفي إحدى الدول سمع الشيخ أن داعية هناك قد سجن فكتب الشيخ إلى المسئولين هناك يقول لهم : «من عبد العزيز بن عبد الله بن باز إلى حضرات المشايخ المكرمين ..... وفقهم الله لما فيه رضاه وأصلح لي ولهم أمر الدنيا والآخرة .. آمين ..

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. وبعد :

بلغني أن بعض الإخوة في الله قد سجن بطرفكم بأسباب قيامه بالدعوة الإسلامية والتحذير من عبادة الأولياء والاستغاثة بهم والنذر لهم

---

(١) الفتاوى ، جـ٦ ، ص : ٢٣٦ .

ونحو ذلك ، والدعوة إلى هدم القباب والأبنية التي على الأضرحة ؛ لكونها من أسباب الفتنة بالمقبورين والغلو فيهم ، وقد كدرني ذلك وكدر من بلغه ذلك من المسلمين ، وما ذاك إلا لأن الله سبحانه أنزل القرآن الكريم ، وبعث الرسول العظيم محمد بن عبد الله ﷺ لدعوة الناس إلى عبادة الله وحده وتحذيرهم من عبادة المخلوقين من الأنبياء والملائكة والأولياء وغيرهم ، وقد صدع الرسول ﷺ بذلك وأنذر الناس من الشرك وأمر بإخلاص العبادة لله وحده ، كما قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ** ﴾[١] ، وقال تعالى : ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ** ﴾[٢] ، وقال تعالى : ﴿ **وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا** ﴾[٣] . . إلى أن قال :

إذا علمتم ذلك فالواجب عليكم مساعدة الدعاة إلى الله والقيام معهم وحمايتهم ممن يريد التعدي عليهم ؛ لأن ذلك من نصر دين الله ، والجهاد في سبيله ، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** ﴾[٤] ، وقال تعالى : ﴿ **وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ** ﴾[٥] .

وقال النبي ﷺ : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم

---

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٢٣ .
(٢) سورة البينة ، الآية : ٥ .
(٣) سورة الجن ، الآية : ١٨ .
(٤) سورة الأنعام الآيتان ١٦٢ ، ١٦٣ .
(٥) سورة الحج ، الآيتان : ٤٠ ، ٤١ .

يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان »[١] ، وأعظم المنكرات هو الشرك بالله سبحانه ووسائله وذرائعه ، ثم البدع والمعاصي ، فالواجب عليكم أن تنكروا ما أنكره الله ونهى عنه ، وأن تأمروا بما أمر الله به ورسوله ، وذلك هو طريق السعادة والنجاة والعزة والكرامة في الدنيا والآخرة ، أسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أنصار الحق ودعاة الهدى، ومن الهداة المهتدين إنه سميع قريب .

والذي أرجوه منكم هو البدار بالشفاعة لدى المسؤولين في إطلاق سراح المسجونين من الدعاة ، إن كان ما بلغني من سجنهم صحيحاً ، وبذل الوسع في مساعدة الإخوان القائمين بالدعوة إلى الإسلام الصحيح السليم من الشوائب ، والتحذير من الشرك والخرافات والبدع التي جاء الإسلام بالنهي عنها ومحاربتها ، وإذا كان قد أشكل عليكم شيء من كلام بعضهم فأفيدونا عن ذلك حتى نوضح لكم إن شاء الله الإشكال ، بالأدلة من القرآن الكريم وأحاديث الرسول الأمين عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم ، مع بيان خطأ من أخطأ منهم ؛ لأن المقصود هو إظهار الحق الذي بعث الله به محمداً ﷺ والدعوة إليه ، وبيان الباطل والتحذير منه ، عملاً بقول الله سبحانه : ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾[٢] وقوله سبحانه : ﴿ **قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾[٣] »[٤] .

---

(١) أخرجه مسلم وأحمد .
(٢) سورة النحل ، الآية : ١٢٥ .
(٣) سورة يوسف ، الآية : ١٠٨ .
(٤) الفتاوى ، جـ٦ ، ص : ٢٤٨ .

ولن ينسى المسلمون للشيخ برقيته الإنكارية لجمال عبد الناصر حينما قتل سيد قطب – رحمه الله – في وقت لم يكن أحد يجرؤ على الكلام فيه .

بل قد كان له من الشفاعات العظيمة ما أنقذ به أرواحاً كثيرة من المسلمين ومن طلبة العلم والعلماء على وجه الخصوص ، ومن أمتع ذلك ما يلي :

أ – شفاعته لبعض الدعاة في الصومال ونجاتهم من الإعدام ، ففي عام ١٤٠٩ هـ حُكم في دولة الصومال إبان رئاسة سياد بري على عشرة من الدعاة التابعين للرابطة والرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالإعدام ، فجاء بعض العلماء إلى سماحة الشيخ ، وطلبوا منه الشفاعة في أمرهم لدى حكومة المملكة ؛ أملاً في التوسط لدى حكومة الصومال لحقن دماء أولئك ، فما كان من سماحته إلا اتصل بصاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن عبد العزيز ولي العهد ونائب رئيس مجلس الوزراء ورئيس الحرس الوطني ، وطلب منه الشفاعة ، فاستجاب سموه لطلب الشيخ ، واتصل بحكومة الصومال ، وطلب منهم العفو عن أولئك الدعاة ، فاستجابت حكومة الصومال على أن يكتفى بالسجن ويلغى الإعدام .

وبعد مدة أعادوا الكرَّة وطلبوا من سماحة الشيخ أن يشفع في إخراجهم من السجن ، وقالوا : إنه حصل ضرر على أولادهم من جراء سجنهم ، وقد مكثوا مدة طويلة في السجن ، فاتصل سماحته مرة أخرى بولي العهد مجدداً الشفاعة ، فاتصل ولي العهد بالحكومة الصومالية على الفور ، وذلك ليلة عيد الفطر ، فقبلت شفاعته وأفرج عنهم ، وحلت

الفرحة في بيوتهم ، وارتفعت الدعوات منهم ومن ذويهم لمن تسبب في إخراجهم ، فهذه الواقعة وغيرها كثير ، وهي ثمرة طيبة من ثمار العلاقة الموفقة مع الولاة والحكام .

وبعد أن تم الإفراج عن أولئك بعث سماحة الشيخ كتاباً رائعاً إلى صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن عبد العزيز يشكره على موقفه النبيل وشفاعته الحسنة ، وإليك نص ذلك الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم

الرقم : ١٧٣٢ / خ

التاريخ ٥ / ١٢ / ١٤٠٩ هـ

من عبد العزيز بن عبد الله بن باز إلى حضرة صاحب السمو الملكي الأمير المكرم عبد الله بن عبد العزيز ولي العهد ونائب خادم الحرمين الشريفين حفظه الله من كل سوء ، ونصر به الحق آمين .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته . . أما بعد

فقد وصلتني رسالتكم الكريمة المؤرخة في ٣٠ / ١١ / ١٤٠٩ هـ وصلكم الله بحبل الهدى والتوفيق ، واطلعت على مشفوعاتها وهي صورة من الرسالة الموجهة من سموكم إلى فخامة الرئيس محمد زياد بري في تاريخ ١٢ / ٩ / ١٤٠٩ هـ المتضمنة الشفاعة من سموكم لدى فخامته في إطلاق سراح الدعاة السجناء الشيخ الشافعي محمد ورفاقه ، وصورة جوابه لسموكم المؤرخ في ١٢ / ١٠ / ١٤٠٩ هـ المتضمن الإفادة

بالاستجابة لشفاعة سموكم والأمر بإطلاق سراحهم ، وأن ذلك قد تم في عشية عيد الفطر ، وصورة جواب سموكم لفخامته المؤرخ في ٢٩ / ١١ / ١٤٠٩ هـ المتضمن شكر سموكم لفخامته على الاستجابة .

وقد سرني كثيراً ما تضمنته الرسائل ، وحمدت الله سبحانه على ما منَّ به على سموكم من الشفاعة لهؤلاء المساكين ، وما منَّ به عليهم بأسباب من العفو من فخامة الرئيس جزاه الله خيراً ، وأصلح قلبه وعمله حتى تم إطلاقهم .

كما سرني كثيراً ما أشار سموكم إليه مما جبلكم الله عليه من محبة العفو والإحسان إلى الغير وكظم الغيظ ، والحرص على بذل الشفاعة ، والعفو فيما لا يعطل حداً من حدود الله ، ولا يحل حراماً ، ولا يحرم حلالاً .

إنها لنعمة من الله عظيمة تفضل بها سبحانه على سموكم وشرح صدركم لها ، فأسأل الله أن يزيدكم من فضله ، وأن يجعلكم مفاتيح خير ، ومغاليق شر ، وأن ينصر بكم الحق وأهله ، ويخذل بكم الباطل وأهله ، وأن يعينكم على ذلك ما بقيتم ، ويمنحكم البطانة الصالحة .

وإن كتاب الله العزيز ، وسنة رسوله الأمين ، كلاهما يدعو إلى العفو ويشيد بفضل أهله ، وكلاهما يحث على الإحسان وكظم الغيظ ، والشفاعة في الخير ، كما قال الله عز وجل : ﴿ **وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى** ﴾[1] ، وقال سبحانه في وصف المتقين : ﴿ **وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ**

---

(١) سورة البقرة : ٢٣٧ .

عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾[١] ، ويقول عز وجل : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[٢] .

ويقول النبي ﷺ فيما صح عنه : « ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزا ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه » .

وكان يقول ﷺ لأصحابه – رضي الله عنهم – إذا جاءه طالب حاجة : « اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء » .

أسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يمنحكم المزيد من التوفيق لكل خير ، وأن يعينكم على ما فيه صلاح العباد والبلاد ، وأن يمنحكم طول العمر في حسن العمل ، إنه جواد كريم .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الرئيس العام لإدارات

البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد »[٣]

ب – شفاعته لبعض المسلمين في تونس ونجاتهم من الإعدام : ففي تونس إبان حكم الرئيس الأسبق أبو رقيبة حُكم بالإعدام على جماعة من المسلمين من بينهم علماء ودعاة وغيرهم ، فضاقت بالناس الحيل ،

---

(١) سورة آل عمران : ١٣٤ .

(٢) سورة المائدة : ٢ .

(٣) جوانب من سيرة الإمام عبد العزيز بن باز ، ص : ٣١٥ .

والتفتوا يمنة ويسرة ، ولم يجدوا من يطرقون بابه بعد الله تعالى إلا سماحة الشيخ ، فجاءوا إليه ، وقالوا : يا سماحة الشيخ! إخوانكم ينتظرون ما تقومون به لحقن دمائهم ، ويأملون منكم الشفاعة لدى حكومة المملكة ، رجاء التكرم بالشفاعة لدى حكومة تونس ؛ لعل الله أن يحقن دماءهم ، فيسلموا من الإعدام .

فهب سماحته من فوره – كعادته – وقال : نشفع – إن شاء الله – ولعل الله يكتب الخير لهم ، فاتصل سماحته بصاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن عبد العزيز ولي العهد ، فاستجاب سموه ، واتصل بحكومة تونس ، وبعد أخذٍ ورد قبلوا شفاعة سموه ، ووافقوا على إلغاء الإعدام ، والاكتفاء بالسجن .

وما هي إلا أيام ثم زال حكم الحاكم السابق ، وحكم الذي بعده ، وتم الإفراج عن المساجين بموجب عفو عام ، فخرجوا إلى أهليهم فرحين بالسلامة من السجن والإعدام ، ضاعف الله لسماحة الشيخ ولسمو ولي العهد الأجر والمثوبة »[١] .

٥- الحكمة والموعظة الحسنة :

كانت الحكمة والموعظة الحسنة من منطلقات الشيخ – رحمه الله – في تعاونه وتعامله مع العلماء وطلبة العلم امتثالاً للنداء الرباني القرآني : ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾[٢] ، يدعو الشيخ إلى الحكمة ، ويعمل بها في دعوته ، ويلح في التأكيد على

---

(١) جوانب من سيرة الإمام عبد العزيز بن باز ، ص : ٣١٦ .

(٢) سورة النحل : ١٢٥ .

الأخذ بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأنها البوابة العظمى التي يدلف منها الداعي إلى قلوب المدعوين ، يقول رحمه الله : « والحكمة معناها : العلم بما قال الله وقال رسوله ، والموعظة الحسنة المقصود بها الترغيب والترهيب والتوجيه إلى الخير ، وذكر ما للمتقي من الخير والعاقبة الحميدة، وما للكافر والعاصي من العاقبة الوخيمة ، أما الجدال فهو الجدال بالأدلة الشرعية بالأسلوب الحسن دون عنف ولا شدة ، بل بالأدلة الشرعية والبيان الواضح اللين حتى تزول الشبهة إن كان عند المجادلة شبهة »[١] .

ويقول – رحمه الله – في موطن آخر : « فالحكمة هي العلم ، قال الله قال رسوله ، والموعظة الحسنة الترغيب والترهيب تبين ما في طاعة الله من الخير العظيم ، وما في الدخول في الإسلام من الخير العظيم ، ومما عليه إذا استكبر ولم يقبل الحق إلى غير ذلك، أما الجدال بالتالي هي أحسن فمعناه بيان الأدلة من غير عنف عند وجود الشبهة لإزالتها وكشفها ، فعند المجادلة تجادل بالتي هي أحسن وتصبر وتتحمل كما في الآية الأخرى ، يقول سبحانه : ﴿ **وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ** ﴾[٢] ، فالظالمون لهم شأن آخر ، لكن مادمت تستطيع الجدال بالتي هي أحسن ، وهو يتقبل أو ينصت أو يتكلم بأمر لا يعد فيه ظالماً ولا معتدياً فاصبر وتحمّل بالموعظة والأدلة الشرعية والجدال الحسن ، يقول الله سبحانه : ﴿ **وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا** ﴾[٣] ، وقول النبي ﷺ : « البر

---

(١) الفتاوى ، جـ٦ ، ص : ١٦٣ .
(٢) سورة العنكبوت ، الآية : ٤٦
(٣) سورة البقرة ، الآية : ٨٣ .

حسن الخلق » [١] .

ويقول – رحمه الله – : « فالواجب على من عنده علم وبصيرة أن يدعو إلى الله بالطريقة التي رسمها الله لعباده في قوله سبحانه : ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ [٢] ، فمن الحكمة العلم ، قال الله سبحانه ، وقال رسوله ﷺ ، والموعظة الحسنة يعني : الترغيب في الجنة والأجر والسعادة والعاقبة الحميدة ، والترهيب من عذاب الله وغضبه لمن ترك الواجب أو قصر فيه ، أو ارتكب المحرم .

ثم قال سبحانه : ﴿ **وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ يعني : الأسلوب الحسن في إزالة الشبهة وإيضاح الحق .

وقال تعالى : ﴿ **وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ** ﴾ [٣] ، هذا وهم أهل الكتاب : اليهود والنصارى ؛ لأن الجدال بالتي هي أحسن من أسباب قبول الحق والخضوع له ، والجدال بالعنف من أسباب النفرة عن الحق وعدم قبوله ؛ ولهذا أثنى الله على نبيه محمد ﷺ بما منحه الله من اللين وعدم العنف في الدعوة ؛ فقال سبحانه : ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** ﴾ [٤] .

فالواجب على الدعاة إلى الله أن يعتنوا بهذا الأسلوب الذي رسمه

---

(١) الفتاوى ، جـ ٦ ، ص : ٤١٦ .
(٢) سورة النحل ، الآية : ١٢٥ .
(٣) سورة العنكبوت ، الآية : ٤٦ .
(٤) سورة آل عمران ، الآية ١٥٩ .

الله لعباده وأمرهم به ، وأن يحذروا ما يخالفه ، هكذا ينبغي للدعاة أن يتكلموا بالحق ويصدعوا به، ويصبروا على ذلك ، لكن بالأسلوب الحسن، بالعلم والجدال بالتي هي أحسن ، لا بالعنف والشدة ، ولا بالتعرض لفلان وفلان ، ولكن على الداعي أن يبين الحق ويدعو إليه بأدلته ، ويبين الباطل ويدعو إلى تركه بأدلته ، يريد ثواب الله والسعادة لا رياء ولا سمعة ، بل يريد وجه الله والدار الآخرة»[١].

لذلك كان الشيخ صدراً رحباً ، وفؤاداً واسعاً ، وقلباً كبيراً ، رحيماً لطيفاً ودوداً، يجمع ولا يفرق ، ويقرِّب ولا يثرب ، ويذكّر ولا يشهر .

٦ - لا حزبية ولا مذهبية :

كان الشيخ – رحمه الله – في تعامله وتعاونه مع العاملين للإسلام يدعو إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وإلى الجماعة الواحدة ذات الهدف الواحد ، والنهج الواحد ، والمورد الواحد ، ويحذر من التعصب والتحزب والتفرق ، ويرى أنها عوامل هدم للتعامل والتعاون بين المسلمين . أن تتعدد الجماعات ، وتكثر المنظمات ، وهي على قلب واحد، ونهج واحد فذلك أمر محبوب ومرغوب ، ولكن أن تتحول إلى أفكار متصارعة ، ونظريات متنازعة فذلك ما كان يحذر منه دائماً وأبداً ، وكان يسعى جاهداً لتوحيد الكلمة ، وجمع الصفوف ، ولكنه مع ذلك لم يجز لنفسه أن يخوض في عرض أحد ، أو يشهر بخطأ مسلم ، فضلاً عن

---

(١) الفتاوى ، جـ٨ ، ص : ١٧٧ .

داعية من دعاة الهدى .

وتتعدد الأحزاب والجماعات ، ويحدث بينها التفاوت والخلاف أحياناً ، إلا أن جميع الأحزاب والجماعات والاتجاهات تجتمع في محبة الشيخ وإجلاله واحترام رأيه .

وهو – رحمه الله – إضافةً إلى منزلته العلمية التي فرضت احترامه على جميع فئات الناس ، كان أيضاً يتعامل معهم بأجمل أسلوب ، وأحسن وسيلة ، يأتي إليه بعض الناس أحياناً وهم يفيضون غضباً ، ويمتلئون حماسةً للرد على عالم معين ، أو مفكّر ، أو على جماعة ويذكرون من الأخطاء والعيوب والملاحظات ، فلم يكن – رحمه الله – يندفع وراء تلك المقولات ، أو يتعامل بذلك الأسلوب ، بل يتأكد ويتثبت من الأمر أولاً ، فإذا عرف ملاحظة شرعية ، أو مخالفةً دينية ، قدم نصيحة بأحسن عبارة ، وأصدق بيان .

ولم يكن ينال من الجماعات الإسلامية ، أو يشهر بأخطاء المخطىء منهم ، بل إذا سئل عن جماعة قال : « هم على خير كبير ، ونفع الله بجهودهم ، ولديهم بعض الملاحظات ، وكتبنا لهم بذلك ، نسأل الله أن يهدينا وإياهم » – ومعلوم أن الحديث هنا عن الجماعات الإسلامية التي بينها خلاف في بعض وجهات النظر ، أما المخالفة للكتاب أو السنة فليس لنا كلام معهم – وهو مع ذلك كله لا يفتأ يدعو الجميع إلى الجماعة الواحدة ، وإلى الاحتكام لكتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، والبعد عن عوامل الفرقة والشتات والتباغض .

وصفات ذات منك يأخذها الورى ... في المكرمات فكلها أسماء
وتجمعت فيك القلوب على الرضا ... وتوافقت في حبك الأهواء

ومع ذلك كان لا يألو جهداً في النصح بوجوب الألفة والبعد عن التعصبات والحزبيات ، والحث على أن يكون المسلمون جماعة واحدة لتقوى كلمتهم ، وتعظم هيبتهم ، وتثمر جهودهم ، يقول – رحمه الله – في كلام عظيم يبين فيه وجوب الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، ووجوب نصح المخالف بالأسلوب الأمثل ، والطريق الأفضل ، ووجوب البعد عن الحزبيات المفرقة ، والجماعات المبددة : « والبدعة هي ما أحدثه الناس في الدين ونسبوه إليه وليس منه ، لقول النبي ﷺ : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » ، وقول النبي ﷺ : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد »[1] ، ومن أمثلة ذلك بدعة الرفض ، وبدعة الاعتزال ، وبدعة الإرجاء ، وبدعة الخوارج ، وبدعة الاحتفال بالموالد ، وبدعة البناء على القبور ، واتخاذ المساجد عليها إلى غير ذلك من البدع، فيجب نصحهم وتوجيههم إلى الخير ، وإنكار ما أحدثوا من البدع بالأدلة الشرعية ، وتعليمهم ما جهلوا من الحق بالرفق والأسلوب الحسن والأدلة الواضحة لعلهم يقبلون الحق .

أما الانتماءات إلى الأحزاب المحدثة فالواجب تركها ، وأن ينتمي الجميع إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وأن يتعاونوا في ذلك بصدق وإخلاص ، وبذلك يكونون هم حزب الله الذي قال الله فيه سبحانه في آخر سورة المجادلة : ﴿ **أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ بعدما ذكر صفاتهم العظيمة في قوله تعالى : ﴿ **لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** ﴾[2] .

---

(١) أخرجه مسلم .

(٢) سورة المجادلة : ٢٢ .

ومن صفاتهم العظيمة ما ذكره الله عز وجل في سورة الذاريات في قول الله عز وجل : ﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ** ﴾ (١) .

فهذه صفات حزب الله لا يتحيزون إلى غير كتاب الله والسنة والدعوة إليها والسير على منهج سلف الأمة من الصحابة رضي الله عنهم وأتباعهم بإحسان . فهم ينصحون جميع الأحزاب وجميع الجماعات ويدعونهم إلى التمسك بالكتاب والسنة ، وعرض ما اختلفوا فيه عليهما، فما وافقهما أو أحدهما فهو المقبول وهو الحق ، وما خالفهما وجب تركه ، ولا فرق في ذلك بين جماعة الإخوان المسلمين ، أو أنصار السنة والجمعية الشرعية ، أو جماعة التبليغ أو غيرهم من الجمعيات والأحزاب المنتسبة للإسلام ، وبذلك تجتمع الكلمة ويتحد الهدف ، ويكون الجميع حزباً واحداً يترسم خطا أهل السنة والجماعة الذين هم حزب الله وأنصار دينه والدعاة إليه ، ولا يجوز التعصب لأي جمعية أو أي حزب فيما يخالف الشرع المطهر»(٢) .

ويقول – رحمه الله – : «ولا يجوز التفرق والاختلاف ولا الدعوة إلى حزب فلان وحزب فلان ، ورأي فلان ، وقول علان ، وإنما الواجب أن تكون الدعوة واحدة إلى الله ورسوله ، إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، لا إلى مذهب فلان ، أو دعوة علان ، ولا إلى الحزب الفلاني ، والرأي الفلاني ، يجب على المسلمين أن تكون طريقتهم واحدة ، وهدفهم

---

(١) سورة الذاريات : ١٥ – ١٩ .

(٢) الفتاوى ، جـ٧ ، ص : ١٧٦ .

واحد ، هو اتباع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

ولا يجوز أبداً التعصب لزيد أو عمرو ، ولا لرأي فلان أو علان ، ولا لحزب فلان أو الطبقة الفلانية ، أو الجماعة الفلانية ، كل هذا من الأخطاء الجديدة التي وقع فيها كثير من الناس .

فيجب أن يكون المسلمون هدفهم واحد ، وهو اتباع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ في جميع الأحوال ، في الشدة والرخاء ، في العسر واليسر ، في السفر والإقامة ، وفي جميع الأحوال ، وعند اختلاف أهل العلم ينظر في أقوالهم ، ويؤيد منها ما وافق الدليل من دون تعصب لأحد من الناس »[١] .

وهذا نص من أمتع النصوص ، وكلام من أجمل الكلام ، وهو يبين بوضوح عن موقف الشيخ من ضرورة التعاون والتعامل مع ولاة الأمر والعاملين للإسلام ، ويجلي فيه الشيخ نظرته إلى الجماعات الإسلامية ، حيث عرض عليه السؤال الآتي : الذي يقول بأن هذه الجماعات الإسلامية من الفرق التي تدعو إلى جهنم والتي أمر النبي ﷺ باعتزالها هل فهمه غير صحيح ؟

يقول الشيخ – رحمه الله – : « الذي يدعو إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ليس من الفرق الضالة ، بل هو من الفرق الناجية المذكورة في قوله ﷺ : « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين

---

(١) الفتاوى ، جـ٢ ، ص : ٣١٠ .

فرقة كلها في النار إلا واحدة» ، قيل : ومن هي يا رسول الله؟ قال : «من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي» . وفي لفظ : «هي الجماعة»[١] .

والمعنى : أن الفرقة الناجية : هي الجماعة المستقيمة على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم ؛ من توحيد الله ، وطاعة أوامره ، وترك نواهيه ، والاستقامة على ذلك قولاً وعملاً وعقيدة ، هم أهل الحق وهم دعاة الهدى ولو تفرقوا في البلاد ، يكون منهم في الجزيرة العربية ، ويكون منهم في الشام ، ويكون منهم في أمريكا ، ويكون منهم في مصر ، ويكون منهم في دول إفريقية ، ويكون منهم في آسيا ، فهم جماعات كثيرة يعرفون بعقيدتهم وأعمالهم ، فإذا كانوا على طريقة التوحيد والإيمان بالله ورسوله ﷺ ، والاستقامة على دين الله الذي جاء به الكتاب وسنة رسوله ﷺ فهم أهل السنة والجماعة ، وإن كانوا في جهات كثيرة ، ولكن في آخر الزمان يقلون جداً .

فالحاصل : أن الضابط هو استقامتهم على الحق ، فإذا وجد إنسان أو جماعة تدعو إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وتدعو إلى توحيد الله واتباع شريعته فهؤلاء هم الجماعة ، وهم من الفرقة الناجية ، وأما من دعا إلى غير كتاب الله ، أو إلى غير سنة الرسول ﷺ فهذا ليس من الجماعة، بل من الفرق الضالة الهالكة ، وإنما الفرقة الناجية : دعاة الكتاب والسنة ، وإن كانت منهم جماعة هنا وجماعة هناك ما دام الهدف والعقيدة واحدة، فلا يضر كون هذه تسمى : أنصار السنة ، وهذه تسمى :

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود .

الإخوان المسلمين ، وهذه تسمى : كذا ، المهم عقيدتهم وعملهم ، فإذا استقاموا على الحق وعلى توحيد الله والإخلاص له واتباع رسول الله ﷺ قولاً وعملاً وعقيدة ، فالأسماء لا تضرهم ، لكن عليهم أن يتقوا الله ، وأن يصدقوا في ذلك ، وإذا تسمى بعضهم بـ : أنصار السنة ، وتسمى بعضهم بـ : السلفيين ، أو بالإخوان المسلمين ، أو تسمى بعضهم بـ : جماعة كذا، لا يضر إذا جاء الصدق ، واستقاموا على الحق باتباع كتاب الله والسنة وتحكيمهما والاستقامة عليهما عقيدة وقولاً وعملاً ، وإذا أخطأت الجماعة في شيء فالواجب على أهل العلم تنبيهها وإرشادها إلى الحق إذا اتضح دليله .

والمقصود : أنه لا بد أن نتعاون على البر والتقوى ، وأن نعالج مشكلاتنا بالعلم والحكمة والأسلوب الحسن ، فمن أخطأ في شيء من هذه الجماعات أو غيرهم مما يتعلق بالعقيدة ، أو بما أوجب الله ، أو ما حرم الله نبهوا بالأدلة الشرعية بالرفق والحكمة والأسلوب الحسن ، حتى ينصاعوا إلى الحق ، وحتى يقبلوه ، وحتى لا ينفروا منه ، هذا هو الواجب على أهل الإسلام أن يتعاونوا على البر والتقوى ، وأن يتناصحوا فيما بينهم ، وأن لا يتخاذلوا فيطمع فيهم العدو»[1] .

٧- البصيرة :

إضافة إلى الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن كان الشيخ – رحمه الله – في تعامله وتعاونه مع العلماء وطلبة العلم

---

(١) الفتاوى ، جـ٨ ، ص : ١٨١ – ١٨٣ .

ينصحهم إلى الدعوة على بصيرة ، وأن يكون الداعية ذا فهم ثاقب ، ونظر صائب ، يتأمل الأمور ، ويتبصر في الأحداث ، يدعو بالحكمة في موعظة حسنة ، ومجادلة حسنة ، وبصيرة حسنة .

إن البصيرة نور وضّاء ، وسلاح مضاء ، ومحجة بيضاء ، يقول – رحمه الله – : « يقول تعالى : ﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ [١] ، فأمر الله نبيه أن يبلغ الناس أن سبيله التي هو عليها الدعوة إلى الله عز وجل ، وهكذا أتباعه هم على ذلك ، والمعنى : قل يا محمد ، أو قل يا أيها الرسول للناس : هذه سبيلي أنا ومن اتبعني . فعلم بذلك أن الرسل وأتباعهم هم أهل الدعوة ، وهم أهل البصائر ، فمن دعا على غير بصيرة فليس من أتباعهم، ومن أهمل الدعوة فليس من أتباعهم ، وإنما أتباعهم على الحقيقة هم الدعاة إلى الله على بصيرة ، يعني أتباعهم الكُمل الصادقين الذين دعوا إلى الله على بصيرة ، ولم يقصروا في ذلك ، وعملوا بما يدعون إليه ، وكل ما حصل من تقصير في الدعوة ، أو في البصيرة كان نقصاً في الاتباع ، ونقصاً في الإيمان وضعفاً فيه ، فالواجب على الداعية إلى الله عز وجل ، أن يكون ذا بصيرة ، أي ذا علم ، فالدعوة على جهل لا تجوز أبداً ، لأن الداعية إلى الله على جهل يضر ولا ينفع ، ويخرب ولا يعمر ، ويضل ولا يهدي ، فالواجب على الدعاة إلى الله سبحانه وتعالى التأسي بالرسل بالصبر والعلم والنشاط في الدعوة : ﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ** ﴾ » .

---

(١) سورة يوسف : ١٠٢ .

ويقول – رحمه الله – : « فطالب العلم الذي يسير على بصيرة ، يعرف الأدلة الشرعية ، ويعرف أحكام الإسلام ، ويعمل بها ، مرفوع الرأس أينما كان ، ومحترم أينما حل ، ولا سيما بين جماعته وأهل بلده إذا عرفوا منه العلم والنصح ، والصدق وعدم العجلة ، التي ليس لها ما يسوغها ، بل يكون طبيباً حكيماً ، يدعو إلى الله بالحكمة والرفق .

فهذا مرفوع الرأس ، ومحترم أينما كان : في قرية أو قبيلة ، أو غير ذلك إذا كان متخلقاً بالعلم قولاً وعملاً ، مبتعداً عن أخلاق الفسّاق ، والمجرمين .

فطالب العلم البصير بدينه الناصح لله ولعباده مرفوع الرأس ، ومحترم أينما كان : في الطائرة ، وفي القطار ، وفي البر والبحر ، وفي أي مكان إذا أخلص لله ، وأظهر العلم والدعوة إلى الله ، وأحسن إلى الناس بالرفق والكلام الطيب ، فله البشرى والعاقبة الحميدة ، والثناء الحسن من المجتمع، والأجر العظيم من الله عز وجل ، كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾[١] ، وكما قال سبحانه : ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾[٢] ، وقال جل وعلا يخاطب نبيه محمداً ﷺ : ﴿ **فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾[٣] ، والآيات في هذا المعنى كثيرة »[٤] .

---

(١) سورة يوسف ، الآية : ٩٠ .
(٢) سورة العنكبوت ، الآية : ٦٩ .
(٣) سورة هود ، الآية : ٤٩ .
(٤) الفتاوى ، جـ٧ ، ص : ٢٣٣ .

٨ - التفاؤل :

كان الشيخ في تعامله وتعاونه مع أبنائه وإخوانه من العلماء وطلبة العلم يدعوهم دائماً إلى التفاؤل الحسن ، واليقين بالأمل المشرق ، والنصر القريب ، والبشائر المرتقبة ، كان يحذر من الكلمات التي تُفهم أن الدين تلاشى ، والإسلام تضاءل ، وكان يكرر قوله ﷺ : « من قال قد هلك الناس فهو أهلكهم »(١) .

كان يبشر بمستقبل زاهر ، وخير قادم ، ويبث في قلوب السامعين وأرواحهم النشاط والهمة والجهاد والمناضلة بما يرفعه لهم من بيارق الأمل الأخَّاذ ، فليس من منهاجه التباكي ، والتحسر ، والتخاذل ، والخمول ، والتثبيط ، والتقنيط .

يقول – رحمه الله – حينما سئل عن رؤيته لمستقبل الإسلام : « أرى أن الإسلام سوف ينتصر بإذن الله على تلك التيارات والنحل الزائفة التي ابتلي بها العالم في عصرنا الحاضر ، وأن ما يوجه إلى الإسلام عداء ماكر للنيل منه وإزاحته عن قيادة العالم سوف يعود في النهاية بإذن الله تعالى على نحور أصحابه ، وذلك أن الله جل شأنه قد تكفل بحفظ القرآن الكريم الذي هو الأساس العظيم للإسلام ، حيث يقول سبحانه : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾(٢) .

وقد هيأ الله سبحانه وله الحمد والمنة لدينه أنصاراً ، كما قال النبي ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم

---

(١) أخرجه البغوي في شرح السنة ١٣ / ١٤٤ .
(٢) سورة الحجر ، الآية ٩ .

حتى يأتي أمر الله » ، وفي رواية أخرى : « لا يضرهم من خالفهم حتى تقوم الساعة »[١] ، ومما يبشر بما ذكرنا ما انتشر في العالم الإسلامي وغيره من الحركات التي توصي باتباع الكتاب والسنة والسير عليهما ، ثم إن تلك المبادئ والمذاهب المختلفة من شيوعية ورأسمالية غربية وغيرها من المذاهب التي يروج لها اليوم أصحابها قد ثبت بالتجربة زيفها وفشلها ، وأنها لا تسعد البشرية ، بل تضرها في دينها وأخلاقها واقتصادها ، حيث إنها من صنع البشر الذي طبيعته القصور والجهل والهوى ، كما قال تعالى : ﴿ **وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا** ﴾[٢] .

وقد بدأت البشرية تتلفت يمنة ويسرة علها تجد منهجاً صالحاً ينقذها من الهاوية التي تردت فيها جميع شؤون حياتها ، والإسلام وحده هو القادر على إنقاذ البشرية من تلك المهالك ، وستكتشف البشرية بإذن الله تلك الحقيقة إن عاجلاً أو آجلاً ، كما قال الله تعالى : ﴿ **فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ** ﴾[٣] .

وكلامنا هذا هو في الإسلام النقي من شوائب الشرك والبدع الذي أخذ به النبي ﷺ وأصحابه والسلف الصالح من بعده فأفلحوا ونجحوا وفتحوا البلاد وقادوا العباد إلى سبيل الرشاد وشاطىء السلامة .. والله الموفق »[٤] .

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم بنحوه .
(٢) سورة النساء ، الآية : ٨٢ .
(٣) سورة الرعد ، الآية : ١٧ .
(٤) الفتاوى ، جـ ٦ ، ص : ٢٢٦ .

٩- أمانة البلاغ :

العلم منة كبرى ، ومنحة عظمى ، وهبة مثلى ، ومن الواجب على من آتاه الله هذه النعمة أن يعرف قدرها ، ويؤدي شكرها ، وذلك بالقيام بحقها خير قيام ، فكما أن العالم وريث الأنبياء ، وحبيب من في السماء، ويستغفر له كل شيء حتى السمك في الماء ، فإنه إذا قصر في الواجب ، وفرّط في الرسالة ، وضيع الأمانة ، وكتم العلم ، فقد عرض نفسه لسخط عظيم ، ومقت وخيم ، وعذاب أليم : ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ**﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ**﴾ (٢) .

ولقد كان الشيخ – رحمه الله – في تعامله وتعاونه مع العلماء وطلبة العلم ينطلق من هذا المنطلق أيضاً ، ويعلم يقيناً أنه من الواجب التعاون والتكاتف والتناصح والتآزر لتبليغ دين الله ونشر شريعة الله ، وتعليم الخلق هداه ، فكان لا يدخر جهداً في تبليغ العلم ، وإسداء النصيحة ، وتعليم الجاهل ، وتنبيه الغافل بكل الطرق ، وشتى الوسائل، وجميع السبل من محاضرة ، أو درس ، أو كتابة ، أو إعلام ، أو هاتف ، أو لقاء .. إلخ وكان يوصي أبناءه وإخوانه من العلماء وطلبة العلم بالقيام بواجب البلاغ والتعاون في ذلك ، فاستمع إليه وهو يهتف للأسماع والأصقاع قائلاً : « فالمقصود أن الله جل وعلا شرع لعباده أن يبلغوا رسالات ربهم ، وأن يعلموا الناس ما بعث الله به رسله من كل طريق ،

---

(١) سورة آل عمران : ١٨٧ .

(٢) سورة البقرة : ١٥٩ .

ولكن المنبر والمسجد هما أهم طريق في تبليغ الرسالة ، ونشر الدعوة ، تلك الرسالة العظيمة التي يجب على جميع العلماء ومعلمي الناس الخير أن يُعنوا بها ، وأن يعيدوها إلى حالتها الأولى ، وأن يفقهوا الناس أمور دينهم من طريق المسجد لأنه مجمع المسلمين في الجمع وغيرها .

كما أن عليهم بأن يبلغوا الناس ما يجب عليهم في أمور دينهم ودنياهم في الطرق الأخرى كطريق الإذاعة والتلفاز والصحافة ، وطريق الخطابة في المجتمعات ، وفي الحفلات المناسبة ، ومن طريق التأليف ، ومن كل طريق يمكن منه تبليغ شرع الله سبحانه ورسالته.

هكذا يجب على أتباع الرسل ، وخلفائهم من أهل العلم والإيمان أن يبلغوا رسالات الله ، وأن يعلموا الناس شريعة الله ، حتى يتفقه الكبير والصغير ، والرجل والمرأة ، والموافق والمخالف ، وحتى تقوم الحجة وتنقطع المعذرة .

ولا يجوز لولاة الأمور ولا لغيرهم أن يحولوا بين الناس وبين هذه المنابر، إلا من عُلم أنه يدعو إلى باطل ، أو أنه ليس أهلاً للدعوة ، فإنه يمنع أينما كان .

أما من كان يدعو إلى الحق والهدى ، وهو أهل لذلك . فالواجب أن يشجع وأن يعان على مهمته ، وأن تسهل له الوسائل التي يبلغ بها أمر الله وشرعه سبحانه وتعالى ، كما قال الله تعالى : ﴿**وتعاونوا على الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ولا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ والْعُدْوَانِ**﴾[1] ، وقال عز وجل : ﴿**وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ**

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٢ .

﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[١] .

وقال النبي ﷺ : «الدين النصيحة» قيل : لمن يا رسول الله؟ قال : «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» رواه مسلم . . والأدلة في هذا المعنى من الكتاب والسنة كثيرة .

وعلى جميع أهل العلم من حملة الكتاب والسنة في كل مكان أن يقوموا بواجب الدعوة والتعليم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بحسب الاستطاعة ، لقول الله عز وجل : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[٢] .

وعليهم أن يبلغوا رسالة الله أينما كانوا : في المسجد ، وفي البيت ، وفي الطريق، وفي السيارة ، وفي الطائرة ، وفي القطار ، وفي كل مكان ، ليس للتبليغ محل مخصوص ، بل التبليغ مطلوب في كل مكان بحسب الاستطاعة ، لقول الله عز وجل : ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾[٣] .

وقوله سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾[٤] ، وقول النبي ﷺ : «بلغوا عني ولو آية» ، وقوله ﷺ : «نضّر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها ثم أدّاها كما سمعها ، فرب مبلَّغ أوعى من سامع» ، وكان إذا خطب عليه الصلاة والسلام يقول : «فليبلغ الشاهد الغائب» ولما خطب الناس في عرفات في حجة الوداع في أعظم جمع ، قال لهم في آخر خطبته وهو على راحلته : «فليبلغ الشاهد الغائب فرب مبلَّغ أوعى

---

(١) سورة العصر .
(٢) سورة التغابن ، من الآية ١٦ .
(٣) سورة النحل ، الآية : ٣٥ .
(٤) سورة المائدة ، الآية ٦٧ .

من سامع » ، وقال : « وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون؟ » ، قالوا : نشهد أنك قد بلّغت وأديت ونصحت ، فجعل يرفع إصبعه إلى السماء ثم ينكتها إلى الناس ، ويقول : « اللهم اشهد ، اللهم اشهد » أخرجه الإمام مسلم في صحيحه .

ولما بعث علياً إلى خيبر لدعوة اليهود وقتالهم إن لم يقبلوا الدعوة قال له : « ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليه من حق الله تعالى فيه ، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم » متفق على صحته من حديث سهل بن سعد الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وفي صحيح مسلم من حديث أبي مسعود الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال : « من دل على خير فله مثل أجر فاعله » .. والآيات والأحاديث في الدعوة إلى الله سبحانه وإرشاد الناس إلى الخير وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر كثيرة جداً.

فعلى جميع أهل العلم والإيمان من ولاة الأمر وغيرهم في جميع الدول الإسلامية وغيرها أن يبلغوا رسالة الله ، وأن يعلموا الناس دينهم ، وأن يتحروا الحكمة والرفق في ذلك ، والأساليب المناسبة التي ترغّب الناس في قبول الحق ولا تنفرهم منه .. »

إلى أن يقول – رحمه الله – : « فوجب على أهل العلم والإيمان أن يبلغوا الناس من منابر الإذاعة ، ومنابر التلفاز ، ومنابر الصحافة ، ومنابر الجمعة ، ومنابر العيد ، وفي كل مكان ، وبالدروس والحلقات العلمية في المساجد وفي غير المساجد »[1] .

---

(١) الفتاوى ، جـ ٥ ، ص : ٨٠ .

١٠ - التريث المتحرق :

لا أظن أحداً ممن عرفت ورأيت في هذا الزمن أكثر غيرةً ولا أشد تحرقاً ولا أعظم تألماً لدين الله تعالى من الشيخ – رحمه الله – كان همه لهذا الدين يؤاكله ويشاربه ، وينام معه ، ويصحو معه ، بل يكاد يختلط بأنفاسه ، ويجري في دمائه ، كان يتألم ألماً شديداً ، ويتمزق قلبه ، ويحترق فؤاده ، ويتكدر صفوه حينما يعلم بحرمة لله انتهكت، أو نازلة بالمسلمين نزلت ، أو مخالفة لشرع الله وقعت ، ولكنه مع ذلك كان عظيم الاحتمال ، كبير الحلم ، عجيب الصبر ، وكم من مواقف عصيبة ، وأحداث مريبة ، وتصرفات عجيبة مرت به – رحمه الله – ولكنها وجدت جبلاً شامخاً وإماماً راسخاً .

يأتي إليه الرجل والرجلان أو الوفود أحياناً ، وهم يمتلئون غضباً ، ويفيضون حماسة ، ويقطرون حمية ، ويتلظون اندفاعاً ، فيشرحون له ما أزعجهم ، ويخبرونه بما ألم بهم ، فيقابلهم الشيخ بلغة ثابتة ، ونبرة هادئة ، ونغمة متأنية ، يتفاعل مع الحدث، ويتجاوب مع الشكاية ، ولكن بسمت وهدوء ، ولطف ووقار ، فهو لا يضع البارود على النار ، فيزيد القلوب اشتعالاً ، والأذهان احتراقاً ، بل يمتص الحماسة ، ويسكن الغضب، ويهدئ الروع ، ويبث الطمأنينة ، ويعد بحسن العاقبة ، ولا يعني ذلك أن يغض الطرف، أو يتناسى الأمر ، أو يتهاون بالحدث ، بل يهتم غاية الاهتمام ، ولكن على طريقته الخاصة ، وبأسلوبه الحكيم ، وبصيرته النافذة ، ووسيلته الناجعة ، ﴿**وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا**﴾[1] .

---

(١) سورة البقرة : ٢٦٩ .

١١ - بهداهم اقتده :

كان الشيخ – رحمه الله – في تعامله وتعاونه مع العلماء وطلبة العلم حريصاً على عدم التنابذ والتنازع والفرقة مهما كان هنالك من اجتهاد واختلاف فيما يسوغ فيه الاجتهاد ، وكان في ذلك مقتدياً بسلف الأمة – رضي الله عنهم وأرضاهم – والذين ضربوا أروع الأمثلة في ذلك .

« لقد اختلف الأئمة في كثير من الأمور الاجتهادية ، كما اختلف الصحابة والتابعون من قبلهم ، وهم جميعاً على الهدى ما دام الاختلاف لم ينجم عن هوى أو شهوة أو رغبة في الشقاق ، فقد كان أحدهم يبذل جهده وما في وسعه ولا هدف له إلا إصابة الحق ، ورضا الله عز وجل ، ولذلك فإن أهل العلم في سائر الأعصار كانوا يقبلون فتاوى المفتين في المسائل الاجتهادية ، فيصوبون المصيب ، ويستغفرون للمخطىء ، ويحسنون الظن بالجميع ، ويسلمون بقضاء القضاة على أي مذهب ، ويعمل القضاة بما ظهر لهم ، ولو خالف مذهبهم من غير حرج أو تعصب ، وخاصةً في بعض المسائل التي تستعصي .

لقد كان من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم ومن بعدهم من يقرأ البسملة ، ومنهم من لا يقرؤها ، ومنهم من يجهر بها ، ومنهم من يُسرُّ ، وكان منهم من لا يقنت، ومنهم من يتوضأ من الرعاف والقيء والحجامة ، ومنهم من لا يتوضأ ، ومنهم من يتوضأ من أكل لحم الإبل أو ما مسته النار مساً مباشراً ، ومنهم من لا يرى في ذلك بأساً ، إن هذا كله لم يمنع أحداً منهم من أن يصلي خلف الآخر كما كان أبو حنيفة

وأصحابه والشافعي وأئمة آخرون يصلون خلف أئمة المدينة من المالكية وغيرهم ، ولو لم يلتزموا بقراءة البسملة لا سراً ولا جهراً ، وصلى الرشيد إماماً ، وقد احتجم وصلى الإمام أبو يوسف خلفه ولم يعد الصلاة مع أن الحجامة عنده تنقض الوضوء ، وكان الإمام أحمد بن حنبل يرى الوضوء من الرعاف والحجامة ، فقيل له فإن كان الإمام قد خرج منه الدم ولم يتوضأ هل يصلي خلفه؟ قال : كيف لا أصلي خلف الإمام مالك وسعيد ابن المسيب؟! إشارة إلى أن الإمامين مالكاً وسعيداً لا يريان الوضوء من خروج الدم ، بل الأمر أوسع من ذلك في بعض النقول .

ومن هنا .. وكما قال محمد بن الحسين بناء على ما ذكره ابن العربي – رحمه الله – في كيفية النظر في أقوال أهل العلم وسعة الأفق والبعد عن التعصب يقول : اعلموا – رحمكم الله ووفقنا وإياكم للرشاد – أن من صفة هذا العالم العاقل الذي فقهه الله في الدين ونفعه بالعلم أن لا يجادل ولا يماري ، ولا يغالب بالعلم إلا من يستحق أن يغلبه بالعلم الشافي ، وذلك يحتاج في وقت من الأوقات إلى المناظرة لا على الاختيار؛ لأن من صفة العالم العاقل أن لا يجالس أهل الأهواء ولا يجادلهم ، فأما في العلم والفقه وسائر الأحكام فلا .

وينبغي أن يبتعد عن الجدال والمراء المنهي عنه الذي يخاف منه سوء العاقبة ، الذي حذرناه النبي ﷺ وحذر منه أهل العلم ، فقال ﷺ : « من ترك المراء وهو مبطل بني له بيت في ربض الجنة ، ومن تركه وهو محق بني له في وسطها ، ومن حسن خلقه بني له في أعلاها »[1] .

---

(١) رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن .

وعن مسلم بن يسار أنه كان يقول : «إياكم والمراء فإنها ساعة جهل العالم ، وبها يبتغي الشيطان زلته» .

وعن الحسن قال : ما رأينا فقيهاً يماري .

وعن الحسن أيضاً قال : المؤمن يداري ولا يماري ينشر رحمة الله ، فإن قبلت حمد الله وإن ردت حمد الله .

قال محمد بن الحسين : وعند الحكماء أن المراء أكثره يغير قلوب الإخوان ويورث التفرقة بعد الألفة والوحشة بعد الأنس .

وورد في خبر عن النبي ﷺ قال : «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل»[1] ، وذكر ذلك الآجري في كتاب أخلاق العلماء .

وقد نقل كثير من العلماء أن المسألة إذا لم يكن فيها سنة ولا إجماع وللاجتهاد فيها مساغ ، فلا ينكر على من عمل بها مجتهداً أو مقلداً ، وهذه بعض أقوال العلماء في المسألة :

- سفيان الثوري يقول : «إذا رأيت الرجل يعمل العمل الذي قد اختلف فيه وأنت ترىٰ غيره فلا تنهه» .

- وروى عنه أيضاً الخطيب البغدادي قوله : «ما اختلف فيه الفقهاء فلا أنهى أحداً من إخواني أن يأخذ به» .

- وابن مفلح في كتاب الآداب الشرعية ينقل عن الإمام أحمد - رحمه الله - تحت عنوان : لا إنكار على من اجتهد فيما يسوغ فيه خلاف

---

(١) رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن .

في الفروع ما نصه : « وقد قال أحمد في رواية المروزي : لا ينبغي للفقيه أن يحمل الناس على مذهبه ولا يشدد عليهم » .

- ذكر الإمام النووي في شرحه على صحيح مسلم : ليس للمفتي ولا للقاضي أن يعترض على من خالفه إذا لم يخالف نصاً أو إجماعاً أو قياساً جلياً .

- وحكى ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله بسنده عن عبد العزيز بن محمد عن أسامة بن زيد قال : سألت القاسم بن محمد عن القراءة خلف الإمام فيما لم يجهر فيه ، فقال : إن قرأت فلك في رجال من أصحاب رسول الله ﷺ أسوة ، وإذا لم تقرأ فلك في رجال من أصحاب رسول الله ﷺ أسوة »[١] .

ويقول الدكتور عبد الله الطريقي : (وإذا قلنا إن هذا الخلاف سائغ فذلك يترتب عليه ما يأتي :

١ - أن المختلفين وهم في جملتهم أهل سنة وجماعة يعذر بعضهم بعضاً فيما اختلفوا فيه ، بحيث لا يكون هذا الخلاف سبب نفرة ووحشة، أو نزاع ومخاصمة ، أو مفاصلة وهجران ، بل تبقى الأخوة الإسلامية والمودة قائمة وثابتة .

وقد كان ذلك دأب السلف الصالح ، فقد كانوا يختلفون ويتناظرون مناظرة مناصحة ومشاورة ، مع بقاء الألفة والعصمة بينهم[٢] .

---

(١) كتاب أدب الخلاف ، لمعالي الشيخ الدكتور صالح بن حميد ، ص ٣١ .
(٢) انظر مجموع الفتاوى (٤ / ١٧٢) .

فالصحابة كم حصل بينهم من مسائل النزاع – من هذا النوع – في أبواب العبادات والمعاملات ، بل وفي مسائل قليلة من أمور الاعتقاد ، وكتب أهل العلم مليئة بالأمثلة .

ومع ذلك لم يعرف أن ذلك كان سبب خصومة وشقاق وهجران ، اللهم إلا ما حصل بعد مقتل عثمان رضي الله عنه بسبب دخول عناصر غريبة فيهم ، ومع ذلك لم يعرف أنهم كفر بعضهم بعضاً أو فسقوهم حاشاهم .

وإذا انتقلنا من ذلك الجيل إلى الجيل اللاحق نجد الأمثلة كثيرة ، فهذا الإمام الشافعي يناظره يونس الصدفي (ت ٢٦٤ هـ) يوماً في مسألة ثم يفترقان فيلقاه الشافعي ، ويأخذ بيده ، ويقول : يا أبا موسى ألا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتفق في مسألة [١] .

وهنا يعلق الإمام الذهبي قائلاً : قلت : هذا يدل على كمال عقل هذا الإمام – يعني الشافعي – وفقه نفسه ، فما زال النظراء يختلفون [٢] .

وتناظر الإمام أحمد والإمام علي بن المديني (ت ٢٣٤ هـ) في موضوع الشهادة حتى علت أصواتهما ، وخشي أن يقع بينهما جفاء ، فلما أراد علي الانصراف قام أحمد فأخذ بركابه [٣] .

وقد جرت مناظرة علمية طويلة بين الإمامين العظمين مالك بن أنس ،

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٠ / ١٦) .
(٢) المرجع السابق ، ص : ١٧ .
(٣) جامع بيان العلم وفضله (٢ / ١٠٧) .

والليث بن سعد وكلها تفيض أدباً واحتراماً [١] .

أجل تلك كانت المعاملة بين العلماء حال الاختلاف [٢] .

ولو كان كلما اختلف مسلمان في شيء تهاجرا لم يبق بين المسلمين عصمة ولا أخوة [٣] .

ولذلك ألف شيخ الإسلام ابن تيمية رسالة قيمة في هذه القضية سماها « رفع الملام عن الأئمة الأعلام » .

وكان من الآثار العلمية لهذا الموقف : ما ذكره بعض أهل العلم من أن المخالف في الفروع لا ترد شهادته [٤] ، وأن حكم الحاكم باجتهاد لا ينقض ما لم يخالف نصاً أو إجماعاً [٥] .

٢ – إن الخلاف هنا فيه رحمة واسعة على الناس [٦] ، سواء على العلماء أو على العامة .

أما العلماء فيعلمون أن مجال الاجتهاد والاستنباط رحب وواسع فيعملون أفكارهم وعقولهم من أجل الوصول إلى الأقرب للحق والصواب من علمهم أنهم مأجورون ، أصابوا أم أخطؤوا [٧] .

---

(١) انظر أعلام الموقعين لابن القيم (٣ / ١٠٧ – ١١٤) .
(٢) انظر صفحات في أدب الرأي للأستاذ محمد عوامة ص ٦٥ .
(٣) مجموع الفتاوى (٢٤ / ١٧٣) ، وانظر شرح السنة (١ / ٢٢٩) .
(٤) انظر : المغني مع الشرح الكبير (١٢ / ٥٠) .
(٥) انظر المغني مع الشرح الكبير (١١ / ٤٠٥ – ٤٠٧) .
(٦) انظر كشف الخفاء ومزيل الإلباس (١ / ٦٦) .
(٧) انظر « حجة الله البالغة » للدهلوي (١ / ٣٦) .

كما جاء في الحديث الصحيح : «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر»[١] .

وأما العامة فإن لهم قدوة وأسوة يتبعونهم هم أشبه بالمصابيح يستضيء كل منهم بمن حوله ممن هم أهل للاقتداء .

وذلك ما يتفق مع سماحة هذه الشريعة وعدم الحرج فيها[٢] .

ولعل ذلك ما عناه عمر بن عبد العزيز – رحمه الله – بقوله : «ما أحب أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا» ، ثم يأتي القاسم بن محمد (ت ١٠٧ هـ) مؤيداً ومعللاً فيقول : «لأنه لو كان قولاً واحداً كان الناس في ضيق ، وأنهم أئمة يقتدى بهم، فلو أخذ رجل بقول أحدهم كان في سعة» .

ويوجه الإمام ابن عبد البر هذا الكلام فيقول : هذا فيما كان طريقه الاجتهاد[٣] .

وقد أشار إلى هذا المعنى كثير من الأئمة[٤] .

قال أبو الحسين البغوي (ت ٥١٦ هـ) : «أما الاختلاف في الفروع بين العلماء فاختلاف رحمة ، أراد الله ألا يكون على المؤمنين حرج في الدين»[٥] .

---

(١) متفق عليه (صحيح البخاري كتاب الاعتصام ، الباب ٢١) .
(٢) انظر : أدب الاختلاف في الإسلام للدكتور طه جابر العلواني ، ص : ٢٧ .
(٣) جامع بيان العلم وفضله (٢ / ٨٠) .
(٤) المجموع الثمين من فتاوي الشيخ محمد بن عثيمين (٢ / ٥٤) .
(٥) شرح السنة (١ / ٢٢٩) .

وقال موفق الدين بن قدامة في مقدمة كتابه المغني : « أما بعد فإن الله برحمته وطوله وقوته وحوله ضمن بقاء طائفة من هذه الأمة على الحق .. وجعل في سلف هذه الأمة أئمة من الأعلام .. اتفاقهم حجة قاطعة واختلافهم رحمة واسعة تحيا القلوب بأخبارهم .. »[١] ، وقد ألف أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الدمشقي كتاباً سماه : « رحمة الأمة في اختلاف الأئمة »[٢] .

وهكذا كان الشيخ – رحمه الله – وهكذا كانت نظرته لسلف الأمة وفقهه بأحوالهم ، يقول : « وأما ما جرى من الاختلاف بين أهل العلم في المذاهب الأربعة وغيرها ، فالواجب أن يؤخذ منه ما هو أقرب إلى الصواب ، وهو القول الذي هو أقرب إلى ما قاله الله ورسوله نصاً أو بمقتضى قواعد الشريعة . فإن الأئمة المجتهدين إنما هدفهم ذلك ، وقبلهم الصحابة – رضي الله عنهم وأرضاهم – وهم الأئمة بعد الرسول ﷺ ، فهم أعلم الناس بالله وأفضلهم وأكملهم علماً وخلقاً ، فقد كانوا يختلفون في بعض المسائل ، ولكن دعوتهم واحدة ، وطريقهم واحدة ، يدعون إلى كتاب الله وسنة الرسول ﷺ ، وهكذا من بعدهم من التابعين وأتباع التابعين : كالإمام مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد وغيرهم من أئمة الهدى : كالأوزاعي والثوري وابن عيينة وإسحاق بن راهويه ، وأشباههم من أهل العلم والإيمان ، دعوتهم واحدة ، وهي الدعوة إلى كتاب الله ، وسنة الرسول ﷺ ، وكانوا ينهون أتباعهم عن تقليدهم ، ويقولون : خذوا من حيث أخذنا ، يعنون من الكتاب والسنة »[٣] .

---

(١) وكرر مثل هذا الكلام في آخر كتابه لمعة الاعتقاد .

(٢) انظر فقه التعامل مع المخالف ، للدكتور عبد الله الطريقي ، ص : ٥٠

(٣) الفتاوى ، جـ ٢ ، ص : ٣١٠ .

١٢ - الفهم العميق :

لم يكن الشيخ - رحمه الله - بعيداً عن واقع العلماء وطلبة العلم ، بل كان قريباً منهم محباً لهم مقدراً لهم سابراً لأحوالهم ، عارفاً بأخبارهم ، مطلعاً على واقعهم ، فكان يعرف الداء ويصف الدواء ، لم يكن يكتب نظريات مدبجة ، ويضع أطروحات منمقة ، وهو في عزلة عن الواقع ، وبعد عن الساحة ، بل هو فارس الميدان ، وحبيب الشيب والشبان ، وإذا أردت أن تعرف الذكاء الأجمل ، والفقه الأكمل ، والعلاج الأفضل ، فانظر إلى هذه الوصية النافعة الناجعة ، وقد أطيل عليك بذكر الكثير من هذه المقالة ، ولكنها من أروع ما تدبّج به هذه الصفحات ، وما ينور به كثير من الظلمات ، إنها مقالة آسرة في أسلوبها، ناصعة في ديباجتها ، وافية في مضمونها ، لها حلاوة ، وعليها طلاوة ، أولها مغدق ، وأوسطها مورق ، وآخرها مشرق ، وتوجيهها مثمر ، إنها وصية من أمتع ما قرأت لسماحته ، ومن أروع ما رأيت من نباهته .

يقول - رحمه الله - : « ونتيجة لتلك القلائل التي نشأت في المجتمعات في كل مكان ، ونشأ عنها تصرفات عجيبة من الشباب وغيرهم في الغرب والشرق ، بعضها يضحك الثكلى ، وشر البلية ما يضحك ، اهتم الباحثون من رجال تلك الديار ، لمعرفة الأسباب والمؤثرات ، ومحاولة فرض الحلول المعينة على إزالة تلك الهواجس والآلام فتهاووا في طرق متشعبة ، وظلوا في حيرتهم يعمهون ، وارتدت دراساتهم وحلولهم عليهم خاوية الوفاض ، مزجاة البضاعة ، ووجدوا أن الصامدين براحة نفس ، وهدوء بال أمام هذه العواصف هم المسلمون الملتزمون بدينهم ، المحافظون على شعائر ربهم ، فحاولوا طمس هذه

الحقيقة التي لا تتفق مع منهجهم ونظرتهم نحو عقيدة الإسلام ، منذ أزمان بعيدة ، وصاروا يوهمون أبناء المسلمين ، بأن في دينهم عيوباً وعجزاً عن مواكبة الحياة الحاضرة ، وفي الحقيقة ما هذا الذي يتحدثون عنه إلا عيوب في معتقداتهم وأفكارهم ، ألصقوها بالإسلام ، بعد أن عجزوا عن إيجاد حلول لها .

أما أبناء المسلمين ممن أنار الله بصائرهم ، فإنهم قد ارتاحت نفوسهم بالعودة لتعاليم الإسلام ، وأخذ أوامره علاجاً لكل جديد وفد على مجتمعاتهم ، آخذين من رسول الله ﷺ قدوة في المنهج ، ومعلماً يسترشد بقوله وفعله في كل موقف ، فهو يفزع إلى الصلاة كلما حزبه أمر ، ويقول لبلال رضي الله عنه : « أرحنا يا بلال بالصلاة » ، ويقول : « وجعلت قرة عيني في الصلاة » وهذا تحقيق لقول الله تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ ﴾[1] .

وما هذه الحركات الإسلامية التي تنبع من الشباب في كل بلد إسلامي إلا عودة جديدة لدين الإسلام الذي تريح أوامره وشرائعه النفوس، وتتجاوب مع متطلبات المجتمعات في كل عصر ومكان .

والشباب في أي أمة من الأمم ، هم العمود الفقري الذي يشكل عنصر الحركة والحيوية إذ لديه الطاقة المنتجة ، والعطاء المتجدد ، ولم تنهض أمة من الأمم غالباً إلا على أكتاف شبابها الواعي وحماسته المتجددة .

إلا أن اندفاع الشباب لا بد أن تسايره حكمة من الشيوخ ، ونظرة من

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٤٥ .

تجاربهم وأفكارهم ، ولا يستغني أحد الطرفين عن الآخر .

وإن أمة الإسلام ، وهي أمة الرسالة الباقية ، وذات الصدارة بين الأمم عندما أكرمها الله بهذا الدين ، وببعثة سيد المرسلين محمد ﷺ ، كان للشباب فيها مكان بارز في ركب الدعوة المباركة ، كما كان للشيوخ مكان الصدارة في التوجيه والمؤازرة ، وانطلق الجميع بقيادة محمد بن عبد الله ﷺ ، يؤسسون دولة الإسلام الأولى ، والتي امتدت إلى آفاق بعيدة ، ورفرفت راية الإسلام عالية فوق غالب المعمورة ، في عصور الإسلام المختلفة التي كان الشباب في الطليعة يذودون عن حياض الإسلام، ويدافعون عن ديار المسلمين ، باليد واللسان ، علماً وعملاً ، ففي الوقت الذي كانوا يتقدمون فيه صفوف الجهاد لإعلاء كلمة الله كانوا أيضاً يتزاحمون بالمناكب في حلقات العلماء وجلسات الشيوخ ، يلتقطون الحكمة من أفواههم ، ويستنيرون بما عندهم من علوم ، ويتلقون منهم النصح والإرشاد ، ويستفيدون من ثمرة جهودهم وتجربتهم لمناهج الحياة المقرونة بالتطبيق العملي للإسلام وشرائعه .

وكان من الشباب القادة لألوية الجهاد ، والمندفعون لتبليغ دين الله ، والذين سارت الجيوش الإسلامية تحت ألويتهم ، وحقق الله النصر المؤزر على أيديهم ، وتاريخنا الإسلامي حافل بالشباب المجاهد العامل والشيوخ المجربين المجاهدين رحمهم الله .

ولقد استمر الشباب المسلم في عطاء الخير المتجدد في الحروب الصليبية في الشام والأندلس وغيرها من المواقف التي يتصادم فيها الحق بالباطل حتى اليوم ، فغاظت تلك الحماسة أعداء الإسلام ، حيث سعوا

إلى وضع العراقيل في طريقهم ، أو تغيير اتجاههم، إما بفصلهم عن دينهم أو إيجاد هوة سحيقة بينهم وبين أولي العلم ، والرأي الصائب في أمتهم ، أو بإلصاق الألقاب المنفرة منهم ، أو وصفهم بصفات ونعوت غير صحيحة ، وتشويه سمعة من أنار الله بصائرهم في مجتمعاتهم ، وأو بتأليب بعض الحكومات عليهم .

كل هذا قد يؤدي بالتالي إلى ظهور حركات تتسم بطابع الوقوف من المجتمع والقيادات ، موقفاً قاسياً ومضاداً ، قد يصل إلى نوع من المواجهة في بعض الأحيان أو العمل السري الذي قد يخالطه ما يشينه ، أو يغير من مجراه الطبيعي ، وإلى جانب هذا يرى في العالم بأسره حركات إسلامية ، قد ظهرت على السطح ، وبعضها في أمريكا وأوروبا ، تتفهم الإسلام ، وتدعو إليه ، وترى فيه العلاج لما في العالم من قلق ومشكلات أهمها جنوح الشباب ، والمؤثرات فيهم .

هذه الحركات كان للشباب فيها دور كبير ، وأفعال مؤثرة ، تدعو للتبصير والمؤازرة، إلا أن بعضها وخاصة في بعض الدول الإسلامية قد تعرض للكبت والمضايقة والاضطهاد والملاحقة ، وبعضها استمر في أداء الدور الذي تنادي به تعاليم الإسلام في سبيل الدعوة والاهتمام بتبصير المسلمين عما جد في حياتهم ، ولا يسير وفق منهج الإسلام .

وقد كان لهذا النوع ، وما زال أثر طيب بحمد الله في إصلاح أوساط الشباب ، وإقامة كثير من المجتمعات على جادة الحق والهدى ، في داخل العالم الإسلامي وخارجه عن طريق الكتاب الإسلامي والمنبر ، والمحاضرات، والمخيمات ، والمعسكرات الإسلامية التي يلتقي المسلمون فيها من عدة أقطار ، فيتذكرون علوم دينهم ، ومشكلات مجتمعهم ،

ويتفهمون الواقع من حولهم يعملون بقول الله تعالى : ﴿ **فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** ﴾[١] .

ثم يحرصون على تنظيم أوقات الفراغ في العمل المثمر ، وقد استغل الغربيون والشرقيون هذا الفراغ في أعمال مختلفة ، فلم تحقق النتيجة المرغوبة لامتصاص طاقة الشباب ، وتوجيههم .

إن دور الشباب المسلم الذي يسير وفق تعاليم الإسلام ، دور عظيم في إصلاح النفوس وتوجيه المجتمع والمحافظة على سلامته وأمنه ، لا ينكره إلا أعداء الإسلام ، الذين يدركون مكانة الإسلام ، وسُمُوَّه في استجلاب من يرغب ، منصفاً في طريق العدالة ، والأخلاق الكريمة ، والاستقامة والتوازن في البيئة ، والأمن والاستقرار في المجتمع .

وإن من أهم ما يجب ملاحظته ونحن نتحدث عن دور الشباب في الحركات الإسلامية قديماً وحديثاً ما يلي :

١ – العناية بالشباب منذ نعومة أظفارهم ، وذلك بتوجيههم الوجهة الإسلامية ، والاهتمام بمناهجهم التعليمية ، وإبعاد المؤثرات الضارة بأخلاقهم ، والعمل على ربطهم بدينهم وبكتاب ربهم ، وسنة نبيهم ، وأن يعنى العلماء ورجال الفكر الإسلامي باحتضانهم وتقبل آرائهم واستفساراتهم ، وإرشادهم إلى طريق الحق والصواب ، بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن لاستعدادهم

---

(١) سورة التوبة ، الآية ١٢٣ .

لتقبل التوجيه ، من منطلق الرأي الصائب ، الذي يحدده الإسلام ، ويحث عليه .

٢ – الحرص على إيجاد القدوة الحسنة في المدرسة والبيت ، والنادي والشارع وفي أسلوب التعامل ، وعدم وجود المظاهر المنافية للإسلام ، التي قد تحدث لديهم شيئاً من الشك والريبة أو التردد في القبول ، أو اعتزال المجتمع ، والشكوك فيه ، بدعوى أنه مجتمع غير مطبق للإسلام يقول أبناؤه بخلاف ما يعملون .

وبهذا كله يحصل الانفصال ، وتحدث التصرفات المتسرعة غير المنضبطة ، التي تكون نتائجها غير سليمة على الفرد والمجتمع ، وعلى العمل الإسلامي ، ولا تعود بالفائدة المرجوة على الشباب أنفسهم .

٣ – عقد لقاءات مستمرة مع الشباب ، يلتقي فيها ولاة الأمر والعلماء والمسؤولون في البلاد الإسلامية بالشباب تطرح فيها الآراء والأفكار، وتدرس المشكلات دراسة متأنية ، وتعالج فيها القضايا والمسائل التي تحتاج إلى جواب فاصل فيما عرض ، حتى لا تتسرب الظنون الخاطئة وتتباعد الأفكار ، وينحرف العمل الإسلامي الذي يتحمس له هؤلاء الشباب ، لغير الدرب الحقيقي ، المنطلق الذي رسمته تعاليمه ، وتتم هذه اللقاءات في جو من الانفتاح لإبداء الرأي المتسم بالأخوة والمحبة والثقة المتبادلة بعيداً عن التعصب للرأى ، أو التسفيه للآراء ، أو تجهيل الآخرين .

إن الشباب بتوجيههم ورعايتهم ، مثل النبتة إذا أحسن الزارع

رعايتها نمت وأثمرت ، وإذا أهملت تعثر نموها وفقدت الثمرة منها مستقبلاً ، والشباب فيه طاقة وحيوية ، يحسن الاستفادة منها وتنميتها ، وأسلم منهج في الحياة يربط الشباب بدينه وعلمائه وأمته وبلاده ، هو منهج الإسلام ، فكلما ابتعد الشباب عن منهج دينهم الواضح ، وسلكوا طريق الغلو أو الجفاء ، أو التشدد والانعزال فإن النتائج ستكون وخيمة ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وإن مسئولية ولاة الأمور : من قادة وعلماء ومفكرين ، مسئولية عظيمة ، في الأخذ بأيديهم ورعايتهم وتوجيههم نحو منهج الإسلام ، وتوضيحه لهم ، ليأخذوه منهجاً وسلوكاً ، وليسيروا وفق تعاليم شريعته، قدوة وتطبيقاً .

وهذا من أوجب الأمور وأكمل العلاج ، وهو من باب النصح لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم الذي به يكتمل الإيمان ، كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ .

كما أن ترك الشباب عرضة للأفكار الهدامة ، والتصورات الخاطئة وعدم الأخذ بيده ، وتفهم آرائه وأفكاره ، والإجابة عن كل تساؤلاته ، وإيضاح الرأي الصحيح أمامه قد يفضي إلى ما لا تحمد عقباه ، فالواجب الأخذ بيده ليتجنب كل ما يضر ويسلك ما ينفع ، كما فعل سلفنا الصالح رضوان الله عليهم ، وفي عصور التاريخ المختلفة ، حيث لم يحدث ردود فعل ذات خطر على الفرد والجماعة .

فليتعاون ولاة الأمور كباراً وصغاراً ، علماء ومتعلمين ، مفكرين ومسؤولين ، مع الشباب في البيوت والمدارس ، وفي المجتمعات والجامعات

كل هؤلاء يتعاونون على إرشاد الشباب وتوجيهه وتهيئة الأجواء السليمة له ليبدع فيها ، في ظل العقيدة الإسلامية السمحة ومنهج الإسلام الحكيم .

والله نسأل أن يوفق أمة الإسلام شيباً وشباباً ، قادة وشعوباً إلى العمل بما يرضي الله توجيهاً وتبصيراً وعملاً واقتداء ، وأن يصلح القلوب والأعمال ، وأن يهدي الجميع صراطه المستقيم ، إنه ولي ذلك والقادر عليه ، وهو الهادي إلى سواء السبيل ، وصلى الله علي نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم »[١] .

١٣ - الكرم الفياض والأريحية النادرة :

يقول العرب : « لا يسود بخيل » إن الذي يريد أن يجمع القلوب ، ويؤلف النفوس، ويسل السخائم ، ويلم الشتات ، فلا بد فيه من سمة الكرم ، بحيث يدعم منهاجه ، ويقوي آماله ، بما يبذله من راحة للجسم، وفراق للأهل ، وبذل للمال ، تجتمع الوفود على مائدته ، ويلتف المحبون حوله ، ينفق عليهم من راحته وماله أضعاف ما ينفق من علمه وفكره ، وبهذا يجتمع العاملان القويان لكسب القلوب وجمع النفوس ، إن الكرم في حياة الشيخ لم يأت من فراغ ، ولا تقليداً للآباء والأجداد ، بل كان منطلقاً للشيخ في تعامله وتعاونه مع الولاة والدعاة والعاملين للإسلام ، فهو بعلمه الجم ، وفهمه الثاقب ، عرف أن مما يقوم عليه هذا الدين ، ومما يرفع شعاره ، ويجمل آثاره ،ويعلي مقداره أنه دين الكرم والعطاء ،

---

(١) الفتاوى ، جـ ٢ ، ص : ٣٦٢ - ٣٦٩ .

والجود والسخاء ، فالرب كريم ، بل هو أكرم الأكرمين ، وهو الكريم ومنه الكرم ﴿ إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴾ .

إليه وإلا لا تشدّ الركائب ومنه وإلا فالمؤمِّل خائب
وفيه وإلا فالغرام مضيّع وعنه وإلا فالمحدث كاذب

والكرم سمة من سمات الأنبياء – عليهم السلام – ولقد كان النبي ﷺ أكرمَ إنسان ، وأجودَ مخلوق ؛ أعظمُ الناس بذلاً ، وأوفرهم عطاء وأجزلهم إنفاقاً ، ولقد جُبل على الكرم ، وتعود بسط الكف ، وبذل الندى منذ نعومة أظفاره ﷺ .

حينما بدىء بالوحي فعاد خائفاً وجلاً إلى خديجة – رضي الله عنها – قالت له : « والله لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم ، وتقري الضيف ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق »[١] .

يقول أنس رضي الله عنه ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئاً إلا أعطاه فجاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين فرجع إلى قومه فقال : يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر »[٢] .

لقد كان ﷺ يؤثر على نفسه وأهله ويعطي عطاءً يعجز عنه ملوك الدنيا وكان أجود بالخير من الريح المرسلة .

ما قال لا قط إلا في تشهده لولا التشهد كانت لاءه نعم
يكاد يمسكه عرفان راحته ركنُ الحطيم إذا ما جاء يستلم

---

(١) رواه الشيخان .
(٢) رواه مسلم .

قال جابر : « ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال : لا »[١] .

يقول ﷺ : « ما من يوم يصبحُ العبادُ فيه إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً »[٢] .

ويقول ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه »[٣] .

ولقد ضرب الصحابة – رضوان الله عليهم – أروع الأمثلة في الكرم فهذا عثمان ابن عفان – رضي الله عنه وأرضاه – الذي كان يجيش الجيوش ، ويطعم الطعام ، ويسقي العطشى ، ويكرم الجوعى ، حتى قال ﷺ : « ما ضرّ ابن عفان ما فعل بعد اليوم » ، وعبد الرحمن بن عوف الذي قدمت له سبع مائة راحلة تحمل البر والدقيق والطعام ، فلما وصلت المدينة أنفقها كلها بأحمالها وأحلاسها في سبيل الله ، وقد كان أهل المدينة كلهم عيالاً عليه ، ثلث يقرضهم من ماله ، وثلث يقضي دَيْنهم ، وثلث يصلهم ويعطيهم .

إن هذه الروائع من أخبار الكرم ، وقصص الكرماء ، وعلى رأسهم محمد ﷺ كانت مثلاً أعلى سار على نهجه هذا الشيخ – رحمه الله – بل بلغ فيه شأواً عظيماً ، لقد كان آيةً في الكرم ، أعجوبةً في العطاء . كرم لم تعرف الناس له مثيلاً ، وجود ما رأينا له ضريباً ، خير دائم، ومائدة ممدودة ، وأبوابٌ مشرعة ، ووجه متهلل ، دون بذخ أو إسراف ، أو

---

(١) صحيح مسلم .
(٢) متفق عليه .
(٣) رواه مسلم .

مباهاة أو تبذير .

كـأنك في الكتـاب وجـدت لاءً　　مـحـرمـة عليك فـلا تحلُّ
إذا حـضـر الشـتـاء فـأنت شـمس　　وإن حـضـر المصـيف فـأنت ظلّ
ومـا تدري إذا أنفـقـت مـالاً　　أيكـثـر من عطائك أو يقلّ

لقد تحققت في سماحته – رحمه الله – مراتب الكرم والجود جميعاً، وهي عشر مراتب ، ذكرها ابن القيم – رحمه الله – وهي :

الأولى : الجود بالنفس . وهي أعلى مراتبه ، كما قال الشاعر :

يجود بالنفس إن ضنَّ البخيل بها　　والجود بالنفس أقصى غاية الجود

الثانية : الجود بالرياسة ، وهي ثاني مراتب الجود ، فيحمل الجواد جودُه على امتهان رياسته ، والجود بها ، والإيثار في قضاء حاجات الملتمس .

الثالثة : الجود براحته ورفاهيته ، وإجمام نفسه ، فيجود بها تعباً وكداً في مصلحة غيره ، ومن هذا جود الإنسان بنومه ولذته لمسامره ، كما قيل :

مُـتَـيَّمٌ بالنّدى لو قـال سـائله :　　هب لي جميع كَرَى عينيك لم يَنَمِ

الرابعة : الجود بالعلم وبذله ، وهو من أعلى مراتب الجود . والجود به أفضل من الجود بالمال ؛ لأن العلم أشرف من المال .

الخامسة : الجود بالنفع بالجاه ، كالشفاعة والمشي مع الرجل إلى ذي سلطان ونحوه، وذلك زكاة الجاه المطالب بها العبد ، كما أن للتعليم

وبَذْل العلم زكاته .

السادسة : الجود بنفع البدن على اختلاف أنواعه، كما قال ﷺ : « يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة ، كل يوم تطلع فيه الشمس يعدل بين اثنين صدقة ، ويعين الرجل في دابته فيحمله عليها أو يرفع له عليها متاعة صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وبكل خطوة يمشيها الرجل إلى الصلاة صدقة ، ويُميط الأذى عن الطريق صدقه »[١] .

السابعة : الجود بالعرض ، كجود أبي ضمْضم من الصحابة رضي الله عنهم ، كان إذا أصبح قال : « اللهم إنه لا مال لي أتصدق به على الناس ، وقد تصدقت عليهم بعرضي ، فمن شتمني أو قذفني فهو في حل ، فقال النبي ﷺ : « من يستطيع منكم أن يكون كأبي ضمضم؟ » .

وفي هذا الجود من سلامة الصدر ، وراحة القلب ، والتخلص من معاداة الخلق ما فيه .

الثامنة : الجود بالصبر والاحتمال والإغضاء ، وهذه مرتبة شريفة من مراتبه ، وهي أنفع لصاحبها من الجود بالمال ، وأعزّ له وأنصر ، وأملك لنفسه ، وأشرف لها . ولا تقدر عليها إلا النفوس الكبار .

فمن صعب عليه الجود بماله فعليه بهذا الجود ، فإنه يجتني ثمرة عواقبه الحميدة في الدنيا قبل الآخرة ، وهذا جود الفتوة ، قال تعالى: ﴿ **وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ** ﴾ .

التاسعة : الجود بالخُلق والبشر ، وهو فوق الجود بالصبر والاحتمال

---

(١) متفق عليه .

والعفو ، وهو الذي بلغ بصاحبه درجة الصائم القائم ، وإنه أثقل ما يوضع في الميزان .

قال النبي ﷺ : « لا تحقرن من المعروف شيئاً ، ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسط إليه »[١] ، وفي هذا الجود من المنافع والمسار ، وأنواع المصالح ما فيه . والعبد لا يمكنه أن يسع الناس إلا بخلقه واحتماله .

العاشرة : الجود بتركه ما في أيدي الناس ، فلا يلتفت إليه ، ولا يستشرف له بقلبه ، ولا يتعرض له بحاله ولا لسانه ، وهذا الذي قال عبد الله بن المبارك : « إنه أفضل من سخاء النفس بالبذل » .

وقد نال الدعاة وطلبة العلم والعاملون للإسلام من كرم الشيخ أعظمه، ومن جوده أحسنه ، ومن عطائه أوفره ، فإن آلاف الشفاعات والمعونات كانت تُنفس بها كروبهم ، وتقضى بها ديونهم ، وذلك بحر لا ساحل له ، وسجل لا نهاية له ، وقد ألمحت لشيء من ذلك في كتابي (إمام العصر) .

١٤ - حسن الخلق والتواضع ولين الجانب :

قال تعالى : ﴿ **وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ **وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا**

---

(١) رواه أحمد .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٣٤ .

الَّذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (١).

ويقول ﷺ : «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً ، وخياركم خياركم لنسائهم»(٢).

ويقول ﷺ : «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق»(٣).

ويقول ﷺ : «إن الله رفيق يحب الرفق ، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف ، وما لا يعطي على ما سواه»(٤).

ويقول ﷺ : «يسِّروا ولا تعسّروا ، وبشروا ولا تنفّروا»(٥).

هذه الأخلاق والصفات لم تكن غائبة عن حافظ القرآن ، وحافظ السنة ، حفظها ووعاها ، واعتنى بها ورواها ، وتمثلها واقعاً ملموساً ، وخلقاً مشاهداً .

هيْنُون ليْنُون أيسار بنو يسرٍ ... صيدٌ بهاليلُ حفّاظون للجار
لا ينطقون عن الفحشاء إن نطقوا ... ولا يمارون إن ماروا بإكثار
من تلقْ منهم تقلْ لاقيت سيِّدهم ... مثل النجوم التي يسري بها الساري

يتجلى لك في حياة الشيخ أخلاق يانعة ، وصفات رائعة ، يسمو بها

---

(١) سورة فصلت ، الآية ٣٥ .
(٢) رواه الترمذي : ١١٦٢
(٣) رواه الترمذي : ٢٠٠٥
(٤) رواه مسلم .
(٥) متفق عليه .

الفهم ، ويتسع بها الأفق ، ويبعد النظر ، وتعلو بها الهمة ، وتشحذ العزيمة ، وتحتقر الدنيا ، وتَمْثُل الآخرة ، وتُنسى الهموم ، وتزول الغموم ، وتحيا بها الفضائل ، وتموت الرذائل .. التقوى ، الذكر ، الحلم ، الرفق ، الصبر ، الكرم ، البذل ، التواضع ، حسن الخلق ، اليسر ، السهولة ، الرقة، الخشوع ، تراها أمام عينيك لوحات هائمة تموج بالحسن ، وتتدفق بالحيوية ، وتنطق بالكمال والجمال والجلال .

والغفلة ، والعنف ، والبخل والضجر ، والكبر ، وسوء الخلق ، وقسوة القلب ، وموت الضمير ، والرياء ، إذا كنت في مجلس الشيخ تكاد تجزم أنها صفات لم تخلق ، ولم توجد على ظاهر الأرض ، ما سلك الشيخ فجاً إلا سلكت فجاً آخر ، وما نزل منزلاً إلا ولّت نفوراً ، ولا حل محلاً إلا كأنها حمر مستنفرة ، فرّت من قسورة .

صفات حميدة وخلال مجيدة ، وأخلاق فاضلة ، يعجز القلم إذا ما أراد أن يجلِّي روائع ذلك الخلق البديع ، والأدب الرفيع ، ولكنني أعبِّر باختصارٍ ، وأصف لكم خلقه بإيجاز ، لقد كانت أخلاقه أخلاق النبوّة انظر إلى حسن خلقه ﷺ ، وإنك لن تجد فعلاً أو قولاً أو خلقاً أو سنةً من سننه ﷺ إلا وهي ماثلة في سماحة الشيخ – رحمه الله – لقد أحب الله فامتثل أوامره ، وأحب نبيه ﷺ فتخلَّق بأخلاقه ، وحرص على تطبيق السنة بحذافيرها .

بعض الناس قد يطبق السنة ، ولكن ما راقه منها فقط ، وما وافق هواه ، وتمشى مع واقعه ، أما الشيخ فلم يكد يدع منها شيئاً ، تمثلها روحاً وواقعاً وفكراً وهاجساً ، ليس مجرد كلام يقال ، وليست أحاديث يرويها، وفعله ينافيها ، بل هو القول والفعل ، والدعوى والبينة ، والمقال

والفعال ، ومن أعظم مكارم الأخلاق التي تمثلت في حياته إضافة إلى ما سبق ، التسامح والتواضع ، بلغ منزلة في التواضع بعيدة المدى ، عميقة الأثر ، تواضع لله فرفعه الله ، ركل بقدمه كل مظاهر الكبر والبهرج والغطرسة وحب الذات .

جاءه أحد الناس فقال له : يا سماحة الشيخ ، بعض الفضلاء يرون أنك إذا جلست مع الناس وقت الغداء والعشاء وغيرها أنه يجلس معك العاملون والموظفون والعرب والعجم والفقراء ودهماء الناس ، وإن في هذا حرجاً من بعض كبار الضيوف والزوّار ، فنحن لا نقترح عليك ترك إطعام الناس وفتح المنزل لهم ، ولكن لِيَكُنْ لهم مجلس خاص ، ومكان خاص لأكلهم وشربهم ، وأنت وخواص ضيوفك يوضع طعامكم في مكان خاص ، فتغير وجه الشيخ من هذه المقوله ، وقال : مسكين مسكين صاحب هذا الرأي هذا لم يتلذذ بالجلوس مع المساكين ، والأكل مع الفقراء ، أنا سأستمر على هذا ، وليس عندي خصوصيات ، والذي يستطيع أن يجلس معي أنا وهؤلاء الفقراء والمساكين يجلس ، والذي لا يعجبه وتأبى نفسه فليس مجبوراً على ذلك » .

إن الشيخ – رحمه الله – يمضي على نور من كتاب الله الذي يقول : ﴿ **وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا** ﴾ (١) .

واستمع إلى هذا الكلام الأسمى ، والطريقة الأزكى ، حيث يقول –

---

(١) سورة الكهف ، الآية ٢٨ .

رحمه الله : « من الأخلاق التي ينبغي لك أن تكون عليها أيها الداعية ، أن يكون حليماً في دعوتك، فقيهاً فيها ، متحملاً صبوراً ، كما فعل الرسل عليهم الصلاة والسلام ، إياك والعجلة ، إياك والعنف والشدة ، عليك بالصبر ، عليك بالحلم ، عليك بالرفق في دعوتك ، وقد سبق لك بعض الدليل على ذلك كقوله جل وعلا : ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ** ﴾ (١) .

وقوله سبحانه : ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ** ﴾ (٢) .

وقوله جل وعلا في قصة موسى وهارون : ﴿ **فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى** ﴾ (٣) .

وفي الحديث الصحيح يقول النبي ﷺ : « اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به ، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه » (٤) .

فعليك يا عبد الله أن ترفق في دعوتك ، ولا تشق على الناس ، ولا تنفرهم من الدين ، ولا تنفرهم بغلظتك ولا بجهلك ، ولا بأسلوبك العنيف المؤذي الضار ، عليك أن تكون حليماً صبوراً ، سلس القياد ، لين الكلام ، طيب الكلام ، حتى تؤثر في قلب أخيك ، وحتى تؤثر في قلب المدعو ، وحتى يأنس لدعوتك ويلين لها ، ويتأثر بها ، ويثني عليك

---

(١) سورة النحل : ١٢٥ .
(٢) سورة آل عمران : ١٥٩ .
(٣) سورة طه : ٤٤ .
(٤) أخرجه مسلم .

بها ويشكرك عليها ، أما العنف فهو منفر لا مقرب ، ومفرق لا جامع »[١] .

يا رائد العلم في هذا الزمان ويا ... مجدد العصر في علم وأعمال
وحاتم في عطاياه وجودته ... في بحركم لا يساوي عشر مثقال
في الجود مدرسة ، في البذل مملكة ... في العلم نابغة ، أستاذ أجيال
الحق مذهبه ، والنصح يعجبه ... والذكر يطربه يحيا به سالي
العلم مؤنسه ، والله يحرسه ... ما كان مجلسه للقيل والقال
بالنص فتواه ، بالرفق ممشاه ... من فيض تقواه مخشوشن الحال
لم ينتقص أحداً ، لم يمتلىء حسداً ... لم يفتتن أبداً بالمنصب العالي
العين دامعة ، والكف ضارعة ... والنفس خاشعة من خشية الوالي
المال ينفقه ، والوعد يصدقه ... والشهد منطقه مستعذب حال
يا درة العصر يا بحر العلوم فما ... رأت لك العين من ند وأمثال

١٥ - كسب المخالف :

من أولويات الشيخ - رحمه الله - في تعامله وتعاونه مع العلماء وطلبة العلم والعاملين للإسلام أنه يحاول جاهداً كسب من خالف الصواب منهم ، فهو يلين له العبارة ، ويحسن له القول ، ويعطيه حقه من المكانة والاحترام ، فتجده يرد على أناس لديهم مخالفات في أمور عقدية، ومع ذلك يبتدئ الكلام بقوله : « لقد ذكر فضيلة الشيخ فلان »، أو « كتب صاحب السعادة الأستاذ فلان » ، وهذا كثر في مؤلفات

(١) الفتاوى ، جـ ١ ، ص : ٣٤٦ .

الشيخ وفتاواه ، فليراجعه من أراد التأكد من ذلك ، ثم يأتي الرد سهلاً سمحاً عذباً سائغاً للشاربين .

وإليك قصة واحدة من قصص الشيخ مع بعض المخالفين ، وهو الشيخ العلامة أبو عبد الرحمن بن عقيل وفقه الله الذي كان له مع الشيخ موقف جميل في المناصحة أثر في حياته وغيره من مساره .

وذلك أنه حصل بينه وبين الشيخ خلاف حول مسألة إباحة الغناء ، فكان سماحته يناصح الشيخ أبا عبد الرحمن في هذه المسألة ويتلطف به فكتب الشيخ أبو عبد الرحمن مقالاً رائعاً في المجلة العربية في صفحته (تباريح) بعنوان (بيني وبين الشيخ ابن باز) حيث بيَّن فيه حسن تعامل سماحة الشيخ ، ونصحه ، وصدق نيته ، وحرصه على هداية الناس ، فإليك نص ذلك المقال الذي يقول فيه الشيخ أبو عبد الرحمن : « كانت وقوداً لي ، ولم تَفُتَّ في عضدي عباراتُ التثبيط التي يلذعني بها بعض أساتذتي إذا ما أحسوا مني صلفاً ، واستفزازاً .

بل كان اندفاعي وطموحي عاتيَ التَّيار .

ولكن كثرة التقريع إضافة إلى مكانتهم في قلبي جعلتني أعدل الميزان من فكري ووجداني .

ولا أزال أذكر موعظة شيخي محمد عبد الوهاب بحيري – متَّعه الله بالصحة والعافية – عندما كان يشرف على رسالتي التي عدلت عنها ؛ فقد قال لي : إن من تتلمذ على ابن حزم في مثل سنِّك يكون ناراً على المسلمين ، وأوصاني – نفعه الله – بالورع قبل العلم .

ومنذ عشر سنوات قدمت لشيخي سماحة الشيخ ابن باز نسختي من

كتابي عن (تارك الصلاة عمداً هل يقضي أم لا) .

فحذرني من الصلف والعنف ، وأوصاني بما تستأنس به القلوب ، وعندما جادلته في (المُحلّى) أبدى لي أنه تركه منذ أزيد من ثلاثين عاماً؛ لما فيه من عنف .

وكنت أتهيب الحضور في مجلس الشيخ ، إلا لحاجة ضرورية تخصني في ذات نفسي ، وقد كان – حفظه الله – نعم الأب والمعين بعد الله في قضاء حوائج المسلمين ، وفيما سوى ذلك أتحاشى مجلسه مع شدة الشوق إليه ، لكثرة ما يعنفني ، وبعض الأحباب لا ينقلون له عني إلا ما يشينني عنده .

وذات مرة استفتاني والدي – رحمه الله – وهو في فراش الموت ، فأفتيته ، فقال لي : يا بني! من غير احتقار لك ، لا أقنع إلا بفتوى موقَّعة من الشيخ ابن باز ؛ فأتيت سماحته ، وأفتى بما أفتيت به ، وقد كان حُمل إليه عددٌ من مجلة الثقافة والفنون كتبت فيها خمساً وأربعين صفحة مما لا تسر الكتابة عنها ولا تُشرِّف ، فصار ينهرني ، وأنا أحاوله بأن يكون النصح ستراً لا تشهيراً ، وكنت أخاف أن يسمعه الشيخ إبراهيم الحصين ، وهو أستاذ لي بالابتدائي ، وأستحي منه .

وكان الشيخ يردد : « ما أعظم مصيبتك عند الله » ثم صار يبرم أطراف غترته ، ويدعو لي وقد اغرورقت عيناه ، فزالت المُوجدة من نفسي، وتمزق قلبي حزناً ، لصدق هذا الإنسان في موعظته ، وحرصه على هداية الناس ، وطلب حسن العقبى لهم .

ولو جادلني لكابرت في المجادلة ، وقد فتح الله قلبي لحسن نيته ، ومنذ تلك اللحظة بشهور تقلص حب الغناء والطرب في وجداني ،

وتولدت عندي كراهةُ الغناء كراهةً ما كنت أتصور حدوثها قط ، فسبحان مقلب القلوب .

فإن عاودني الحنين بعد سنة أو سنتين فإنما ذلك لبعض الأغاني الشعبية ، أو أغاني الريف والصعيد ذات المعاني المحببة ، على أنني لا أتمادى في السماع ، فإن تماديت أحسست بالوحشة ، وليس هذه الكراهة عن برهان شرعي انقدح في ذهني ، وإنما هي كراهة ووحشة قُذفت في قلبي ، ولا أعلم كيف جاءت ، بل كانت تلاوتي للقرآن أربى ، وكنت قبلاً لا أتعهده إلا في رمضان ، أو فيما ندر .

وهكذا ظل بعض الأحباب ينقلون عني الصور المظلمة ، ولا يكادون يذكروني بخير ، فوهبت لهم عرضي ، وهجرت أعز مجلس لدي ، وأبقيت لسماحته الدعاء الصالح كلما ذكرته ؛ فقد كان فاتحة خير لي دنيا وآخرة .

وأما ما يلاحظة عليَّ سماحته فيما أنشره أو أذيعه فقسمان : قسم حققته عن اجتهاد كتمسُّكي بأصول أهل الظاهر ، فهذا لن أحُول عنه بعد أن كان يقيناً أو راجحاً عندي ، وأرجو الله أن ألقاه صادق الاجتهاد نزيهَهُ ، وقسم غيره خير منه ، أو أولى منه ، وهذا شيء أتمناه فكراً ، وأعجز عنه سلوكاً .

وسماحته يرتسم سيرة الصحابة ، وورع الإمام أحمد بن حنبل ، وقد راض نفسه على ذلك ، وأعانه عليه سلوك راشد يُتعب أكثر معاصريه وتلاميذه ، فهنيئاً له ، واللهم اغفر لنا جميعاً»[1] .

---

(١) جوانب من سيرة الإمام عبد العزيز بن باز ، ص : ٢٨٥ .

١٦ - القدوة الحسنة :

ضرب الشيخ أروع الأمثلة ، وأصدق الشواهد على صدق نيته ، وجميل منهجه بإلزام نفسه بكل ما دعا إليه أو وجه به ، أو نصح به ، لقد امتثل قول الحق جل وعلا : ﴿ **وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** ﴾ (١) .

إن كتابة الكتب ، وإصدار المجلدات ، وتقويم المسارات ، وانتقاد المخالفات أمر سهل يجيده أي إنسان ، ولكن الذي لا يجيده إلا أفذاذ الرجال ، وعظماء الأبطال هو تصديق الأقوال بالأفعال ، وإتباع الكلام بالالتزام ، وللأسف أن هذا حال كثير من الكُتاب والناصحين في هذا الزمن ، فما أكثر ما ترى من كتب في وجوب الألفة والتحذير من الخلاف والنزاع والتفرق وفي إحسان الظن وما إلى ذلك ، ولكن الكتاب في واد وحال المؤلف في واد آخر .

بل إن كثيراً من المؤلفين حينما يكتب في وجوب حسن الظن ، واتباع الجماعة والبعد عن التعصب ، فهو يريد بذلك كل من عدا جماعته أو حزبه أو فرقته ، وكأن المقصود بالجماعة والألفة والبعد عن النقد هو لمنهجه الذي سار عليه ، وحزبه الذي انتمى إليه ، حتى وإن كان نهجاً قامت أركانه على الحزبية المقيتة ، والعصبية الضيقة .

كان للشيخ – رحمه الله – مؤلفات كثيرة ، وكتب متنوعة وكان بحق أمة وحده، وجامعة بمفرده ، وهو يعلم أن المسألة ليست فيما تخطه الأقلام ، بل بما تسير عليه الأقدام ، وتصدح به الأفهام ، يعلم أن الأمة

---

(١) سورة هود : ٨٨ .

ليست بحاجة إلى كثرة التأليف بل بحاجة إلى العالم الحنيف ، الذي يضرب لها قدوة بفعله الشريف ، ورأيه الحصيف ، وليست المسألة كما قد يُظن هي في تحقيق المسائل ، وتمحيص الرسائل ، وتأليف المجلدات ، في جوٍ مُغلق ، ومكتب مقفل ، وعزلة منقطعة فقط ، بل لا بد مع ذلك من القدوة الحسنة ، والسيرة المباركة ، والأثر المحمود ، والخروج للأمة ، وقد ترك – رحمه الله – علماً جماً ، وتراثاً هائلاً ، ولو جمع كل ما ألفه الشيخ ، وأفتى به وأرسل به ووجه به ، لاحتاج ذلك إلى مئات المجلدات .

قد يؤلف أناس كتباً في الزهد وهم قد أكلوا الأخضر واليابس ، وقد تؤلف كتب عظيمة في وجوب الوحدة ، ولم الشمل ، واتباع جماعة المسلمين ، ثم تجد واقع المؤلف مخالفاً لما يكتب ، فهو مفرق للآراء ، مبدد للجماعات ، متعصب متحزب ، ولقد رأينا كثيراً من الخطباء والمحاضرين يتغنى بكثير من هذه الشمائل ، ثم يغادر منبره إلى مجلسه المتعصب ، وفريقه المتحزب ، ويطلق اللسان للكلام في فلان وفلان ، أما الشيخ – رحمه الله – فلم يكن يعرف شيئاً من هذا ، لم يكن متحيزاً إلى فئة ، ولا متحرفاً لقتال جماعة ، ولما علم الله صدق سريرته ، ونقاء نيته، جمع القلوب على حبه ، وألف الناس إليه . لم يكن الشيخ يريد بدعوته نفسه أو جماعة أو فئة ، بل كان يريد وجه الله تعالى وحده هكذا نحسبه ولا نزكي على الله أحداً . ﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي** ﴾ (١) .

وقد يسطر أناس رسائل في حرمة المسلم والبعد عن الغيبة والنميمة ،

---

(١) سورة يوسف : ١٠٨ .

وهم ينهشون لحوم الناس ، ويقعون في أعراضهم ، ويتبعون زلاتهم ، ويتصيدون أخطاءهم ، وأين ذلك من مجلس الشيخ الذي تمنع فيه الغيبة والنيل من مسلم ، فضلاً عن داعية أو عالم أو ناصح ، ولقد رأيته – رحمه الله – في مرة من المرات ، وكان الحديث عن داعية بدرت منه بعض الملاحظات ، فزل لسان أحد المشايخ الذين يحبهم الشيخ ، زل لسانه بكلمة في ذلك الداعية ، فغضب الشيخ غضباً شديداً، وثار في وجه المتكلم ، فيا الله من مجالس كثير من الناس اليوم ، بل من صلحاء الناس ، بل من الدعاة ، كم من داعية ينال وكم من عالمٍ يهان ، وكم من مسلم ينهش عرضه في مجالسهم وأمام أعينهم ، ثم لا لسان ينكر ، ولا وجه يتمعر .

استمع إليه – رحمه الله – حيث يقول بعد قوله تعالى : ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ [١] : « هذه الآية العظيمة تبين لنا أن الداعي إلى الله عز وجل ينبغي أن يكون ذا عمل صالح يدعو إلى الله بلسانه ، ويدعو إلى الله بأفعاله أيضاً، ولهذا قال بعده ﴿ **وَعَمِلَ صَالِحًا** ﴾ فالداعي إلى الله عز وجل يكون داعية باللسان، وداعية بالعمل ، ولا أحسن قولاً من هذا الصنف من الناس ، وهم الدعاة إلى الله بأقوالهم الطيبة ، وهم يوجهون الناس بالأقوال والأعمال ، فصاروا قدوة صالحة في أقوالهم وأعمالهم وسيرتهم .

وهكذا كان الرسل عليهم الصلاة والسلام ، دعاة إلى الله بالأقوال والأعمال والسيرة ، وكثير من المدعوين ينتفعون بالسيرة أكثر مما ينتفعون بالأقوال ، ولا سيما العامة وأرباب العلوم القاصرة ، فإنهم ينتفعون من

---

(١) سورة فصلت : ٣٣ .

السيرة والأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة ما لا ينتفعون من الأقوال التي قد لا يفهمونها ، فالداعي إلى الله عز وجل من أهم المهمات في حقه أن يكون ذا سيرة حسنة وذا عمل صالح وذا خلق فاضل حتى يقتدى بأفعال وأقواله »[١] .

ويقول – رحمه الله – : « ومن الأخلاق والأوصاف التي ينبغي بل يجب أن يكون عليها الداعية ، العمل بدعوته ، وأن يكون قدوة صالحة فيما يدعو إليه ، ليس ممن يدعو إلى شيء ثم يتركه ، أو ينهى عنه ثم يرتكبه ، هذه حال الخاسرين نعوذ بالله من ذلك ، أما المؤمنون الرابحون فهم دعاة الحق يعملون به وينشطون فيه ويسارعون إليه ، ويبتعدون عما ينهون عنه ، قال الله جل وعلا : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ** ﴾[٢] .

وقال سبحانه موبخاً اليهود على أمرهم الناس بالبر ونسيان أنفسهم : ﴿ **أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾[٣] .

وصح عن النبي ﷺ أنه قال : « يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور فيها كما يدور الحمار بالرحى ، فيجتمع عليه أهل النار فيقولون له يا فلان ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، فيقول بلى كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه »[٤] .

---

(١) الفتاوى ، جـ٣ ، ص : ١١٠ .
(٢) سورة الصف : ٢ ، ٣ .
(٣) سورة البقرة : ٤٤ .
(٤) الفتاوى ، جـ١ ، ص : ٣٤٦ .

هذا بيان للناس :

نختم هذه الجولة السامية ، والرحلة الوافية بهذا البيان الخلاب والبلاغ الجذاب الذي أصدره الشيخ رحمه الله في فترة من الفترات التي أطَلَّتْ فيها الفتن برأسها ، ومدت فئام الفرقة أنوفها ، فكان بياناً صادقاً ، وترجماناً ناطقاً ، ووعظاً رائقاً ، يلخص منهاج الشيخ ويجلي نظرته ، ويصور دعوته ، فيقول : «الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبينا محمد النبي الأمين ، وعلى آله وصحبه ومن اتبع سنته إلى يوم الدين .. أما بعد :

فإن الله عز وجل يأمر بالعدل والإحسان وينهى عن الظلم والبغي والعدوان ، وقد بعث الله نبيه محمداً ﷺ بما بعث به الرسل جميعاً من الدعوة إلى التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده ، وأمره بإقامة القسط ونهاه عن ضد ذلك من عبادة غير الله ، والتفرق والتشتت والاعتداء على حقوق العباد .

وقد شاع في هذا العصر أن كثيراً من المنتسبين إلى العلم والدعوة إلى الخير يقعون في أعراض كثير من إخوانهم الدعاة المشهورين ، ويتكلمون في أعراض طلبة العلم والدعاة والمحاضرين ، يفعلون ذلك سراً في مجالسهم ، وربما سجلوه في أشرطة تنشر على الناس ، وقد يفعلونه علانية في محاضرات عامة في المساجد ، وهذا المسلك مخالف لما أمر الله به ورسوله من جهات عديدة منها :

أولاً : أنه تعد على حقوق الناس من المسلمين ، بل من خاصة الناس من طلبة العلم والدعاة الذين بذلوا وسعهم في توعية الناس وإرشادهم وتصحيح عقائدهم ومناهجهم ، واجتهدوا في تنظيم الدروس والمحاضرات

وتأليف الكتب النافعة .

ثانياً : أنه تفريق لوحدة المسلمين وتمزيق لصفهم ، وهم أحوج ما يكونون إلى الوحدة والبعد عن الشتات والفرقة وكثرة القيل والقال فيما بينهم ، خاصة وأن الدعاة الذين نيل منهم هم من أهل السنة والجماعة المعروفين بمحاربة البدع والخرافات ، والوقوف في وجه الدعاة إليها ، وكشف خططهم وألاعيبهم ، ولا نرى مصلحة في مثل هذا العمل إلا للأعداء المتربصين من أهل الكفر والنفاق ، أو من أهل البدع والضلال .

ثالثاً : أن هذا العمل فيه مظاهرة ومعاونة للمغرضين من العلمانيين والمستغربين وغيرهم من الملاحدة الذين اشتهر عنهم الوقيعة في الدعاة والكذب عليهم والتحريض ضدهم فيما كتبوه وسجلوه ، وليس من حق الأخوة الإسلامية أن يعين هؤلاء المتعجلون أعداءهم على إخوانهم من طلبة العلم والدعاة وغيرهم .

رابعاً : إن في ذلك إفساداً لقلوب العامة والخاصة ، ونشراً وترويجاً للأكاذيب والإشاعات الباطلة ، وسبباً في كثرة الغيبة والنميمة ، وفتح أبواب الشر على مصاريعها لضعاف النفوس الذين يدأبون على بث الشبه وإثارة الفتن ، ويحرصون على إيذاء المؤمنين بغير ما اكتسبوا .

خامساً : أن كثيراً من الكلام الذي قيل لا حقيقة له ، وإنما هو من التوهمات التي زينها الشيطان لأصحابها وأغراهم بها ،وقد قال الله تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً**﴾[١] .

---

(١) الحجرات : الآية ١٢ .

والمؤمن ينبغي أن يحمل كلام أخيه المسلم على أحسنٍ المحامل ، وقد قال بعض السلف : لا تظن بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً .

سادساً : وما وجد من اجتهاد لبعض العلماء وطلبة العلم فيما يسوغ فيه الاجتهاد فإن صاحبه لا يؤاخذ به ولا يثرب عليه إذا كان أهلاً للاجتهاد ، فإذا خالفه غيره في ذلك كان الأجدر أن يجادله بالتي هي أحسن ، حرصاً على الوصول إلى الحق من أقرب طريق ودفعاً لوساوس الشيطان وتحريشه بين المؤمنين ، فإن لم يتيسر ذلك ، ورأى أحد أنه لا بد من بيان المخالفة فيكون ذلك بأحسن عبارة وألطف إشارة ، ودون تهجم أو تجريح أو شطط في القول قد يدعو إلى رد الحق أو الإعراض عنه ، دون تعرض للأشخاص أو اتهام للنيات أو زيادة في الكلام لا مسوغ لها ، وقد كان الرسول ﷺ يقول في مثل هذه الأمور ما بال أقوام قالوا كذا وكذا . .

فالذي أنصح به هؤلاء الإخوة الذين وقعوا في أعراض الدعاة ونالوا منهم أن يتوبوا إلى الله تعالى مما كتبته أيديهم ، أو تلفظت به ألسنتهم مما كان سبباً في إفساد قلوب بعض الشباب وشحنهم بالأحقاد والضغائن، وشغلهم عن طلب العلم النافع ، وعن الدعوة إلى الله بالقيل والقال والكلام عن فلان وفلان ، والبحث عما يعتبرونه أخطاء للآخرين وتصيدها ، وتكلف ذلك .

كما أنصحهم أن يُكَفِّروا عما فعلوا بكتابة أو غيرها مما يبرئون فيه أنفسهم من مثل هذا الفعل ويزيلون ما علق بأذهان من يستمع إليهم ، وأن يقبلوا على الأعمال المثمرة التي تقرب إلى الله وتكون نافعة للعباد ، وأن يحذروا من التعجل في إطلاق التكفير أو التفسيق أو التبديع لغيرهم

بغير بينة ولا برهان ، وقد قال النبي ﷺ : «من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما» متفق على صحته .

ومن المشروع لدعاة الحق وطلبة العلم إذا أشكل عليهم أمر من كلام أهل العلم أو غيرهم أن يرجعوا فيه إلى العلماء المعتبرين ويسألوهم عنه ليبينوا لهم جلية الأمر ويوقفوهم على حقيقته ، ويزيلوا ما في أنفسهم من التردد والشبهة عملاً بقول الله عز وجل في سورة النساء : ﴿ **وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾[١] .

والله المسؤول أن يصلح أحوال المسلمين جميعاً ويجمع قلوبهم وأعمالهم على التقوى ، وأن يوفق جميع علماء المسلمين ، وجميع دعاة الحق لكل ما يرضيه وينفع عباده ، ويجمع كلمتهم على الهدى ويعيذهم من أسباب الفرقة والاختلاف ، وينصر بهم الحق ويخذل بهم الباطل إنه ولي ذلك والقادر عليه ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه ،ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين»[٢] .

إن هذه الذكرى الحسنة ، والعظة النافعة يجب أن ترتسم في الأذهان، وتؤخذ مأخذ التطبيق والإذعان ، يستعين بها الداعي لدراسة موقفه ، ويستضيء بها في دنيا العلم والمعرفة .

---

(١) سورة النساء ، الآية ٨٣ .

(٢) الفتاوى ، جـ٧ ، ص : ٣١١ .

سلبيات في التعامل مع العاملين للإسلام

١ - البحث عن الكمال :

من سلبيات بعض العلماء وطلبة العلم والعاملين للإسلام أنهم لا يقبلون التعامل والتعاون مع الشخص حتى يكون كاملاً من كل عيب ، مبرأ من أي تقصير ، منزهاً عن كل خطأ ، وأنى يكون ذلك؟!!

إنك تعجب أحياناً من إعراض دعاة عن غيرهم لأسباب يسيرة ، وأخطاء قليلة ، فلو كمل المرء عندهم من عشرين وجهاً ونقص من وجهين أو ثلاثة لتولوا عن رحابه ، وأعرضوا عن أعتابه ، والأولى خلاف ذلك ، وهي أن يُثَمَّر ما عند المسلم من الخير ، ويوجه فيما يمكن أن يحسنه ، وتطوى صغائر هفواته في سجل حسناته ، ويشجع فيما عنده من الخير ، وقد يكون عنده إتقان لأمور لا يتقنها سواه ، ولا يجيدها غيره .

ومن الناس من يبادر بالخصومة ، ويسارع بالجفوة لبعض إخوانه من طلبة العلم أو الدعاة أو العاملين للإسلام بسبب خطأ يسير ، أو زلل ضئيل ، أو اجتهاد خاطئ ، أو تلبس بذنب عابر ، وكأنه بذلك يدعي الكمال لذاته ، والجمال لصفاته ، ويأليت الأمر يقف عند ذلك ، بل يكون مع ذلك من التأنيب والتثريب والتفسيق ، والتعذيب ما الله به عليم ، حيث يشهر بخطئه ، وينال من عرضه ، ويتنكر لحسناته ، مع أنه من أهل السنة والجماعة ، وذوي المعتقد السليم ، وهذه والله من أكبر الأمور التي سببت الجفوة، وأورثت الحقد ، وزرعت الفرقة ، لقد أصبح

هَمٌّ بعض الناس أن يظفر على أخيه بخطأ ، أو يعثر عنده على زلة ، أو يحصل منه على هفوه ، إن شارب الخمر في عهده ﷺ لم يسمح للصحابة بمسبته وهو في عهد الوحي وزمن النبوة ، فكيف بالحال في آخر الزمان ، لقد كان الشيخ – رحمه الله – آية في هذه المسألة ، وكان يتمثل قوله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (١) .

٢ – عدم مراعاة الخصائص النفسية :

الله عز وجل خلق الناس مختلفين في أشكالهم ، متباينين في أفهامهم ، متنوعين في ألوانهم ، حتى من كانوا توءماً فلا بد لهم من سمات خاصة ، وميزات مختلفة ، وكثير من الناس في دعوتهم لا يراعون ما بين الناس من الفوارق الخلقية ، والخصائص النفسية ، فيريدون أن يكون كل عالم أو داعية أو طالب علم على وتيرة واحدة ، ورغبة واحدة وسمة واحدة ، وتوجه واحد ، وتَقَبُّلٍ واحد ، فلا يطيقون أن يخرج عن الدائرة أحد ، أو يخالف الطريقة بشر ، أو يرفض الطقوس إنسان ، ومن تلكأ في المسيرة ، أو تعثر في القبول فأمره مدخول ، وفعله غير مقبول ، وهذا من أكبر الخطأ ، يجب أن نؤمن بأن لكل إنسان خصوصياته وميولاته ، وتوجهاته ، وطاقاته ، فلا نصادمه في ذلك طالما أنه يسير في التوجه العام ، ويمضي تحت راية الإسلام .

٣ – ضيق الصدر وسوء المعاملة :

قال تعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ

---

(١) سورة الأعراف : ١٩٩ .

حَمِيمٌ﴾ (١) . وقال تعالى : ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (٢) .

الحلم والعفو والرفق واللين سمات كمال ، ودلائل جمال ، وروائع خصال ، وقد سبق الحديث عنها في حياة الشيخ ، وأنها من أهم الأسباب في نجاحه وفلاحه ، وتربعه على عروش القلوب ، إنها أخلاق الأنبياء ، وروائع الأصفياء : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (٣) .

لا يدري المرء كيف يوفق بين أخلاق متباينة ، وتصرفات متغايرة لدى كثير من الناس ، فهم في الصلاة سابقون ، وفي السنن الظاهرة من الملتزمين ، ولكن الأخلاق الحسنة ، والمعاملات الطيبة لا يتقنون التحلي بها ، وهل بعث الأنبياء إلا بمكارم الأخلاق؟ وهل أثقل في ميزان العبد من حسن الخلق؟ وهل يبلغ المرء درجة الصائم القائم إلا بحسن الخلق؟ لماذا لا يتقرب المرء إلى الله ببشاشة الوجه ، وطلاقة المحيا ، وتهلل الجبين، وتبلج الأسارير ، يقول ﷺ : « وتبسمك في وجه أخيك صدقة » (٤) .

إن بعض الناس وللأسف قد يمر به الشهر والشهران ولم يُرَ على وجهه ابتسامة ، وقد يظن بعضهم أن من كماليات التقوى ، وتمام الدين ، أن لا يبتسم أبداً أو يضحك يوماً ، وأين ذلك من خلق النبي الأعظم ، ونهج الحبيب الأكرم الذي تقول عنه عائشة : « كان ضحاكاً بساماً » ، ويقول

---

(١) سورة المؤمنون : ٩٦ .
(٢) سورة الإسراء : ٥٣ .
(٣) سورة التوبة : ١٢٨ .
(٤) أخرجه الترمذي .

أحد الصحابة : ما رأيت أحداً كان أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ [١] .

إن النبي ﷺ كان يجبذ بردائه حتى تؤثر حاشية الرداء في عنقه ثم يبتسم للرجل ويأمر له بعطاء ، وبعض الدعاة لا يتحمل من أخيه زلة يسيرة أو هفوة عابرة .

إنه ﷺ لم يكن ليغضب لنفسه قط ، أما إذا انتهكت حرمات الله فلم يقم لغضبه شيء ، فياليت بعض الناس يغضب لله مثل ما يغضب لنفسه، ويثور إذا انتهكت حرمات الله مثل ما يثور إذا وجِّه نقد لجماعته أو ملاحظة لقيادته .

إنه ﷺ لم يضرب بيده أحداً ، لا امرأة ولا خادماً ، إلا أن يجاهد في سبيل الله ، وبعض الناس يضربون إخوانهم الدعاة بسيوف باترة من أقلام جائرة .

إن رحابة الصدر ، وبشاشة الوجه ، وطلاقة المحيَّا ، وروعة الابتسامة ، وتهلل الأسارير ، وإشراقة الجبين من أعظم وسائل الدعوة ، ومن أفضل أسباب كسب القلوب[٢] .

يجب أن يهتم الدعاة وطلبة العلم بهذه المسألة كثيراً ، وأن يتعودا عليها ويغرسوها في وجدانهم ، وينقشوها في ضمائرهم ، ويعلموا يقيناً أنه لا فلاح لجهودهم، ولا نجاح لدعواتهم إلا بها : ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ**

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي .

(١) راجع مبحث (الضحك في الإسلام)من كتاب قصائد ضاحكة للمؤلف .

لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (١) .

٤ - التعصب الأعمى :

هذه داهية عظمى ، وكارثة كبرى ، وماحقة جُلّى ، إنها من أكثر معاول الهدم في بناء الدعوة ، ومن أخطر متالف الحب بين جيل الصحوة، لقد هدمت صوامع وبيع وأماكن يذكر فيها اسم الله كثيراً بسبب التعصب الأعمى ، لقد جر على المسلمين العناء، وأورثهم الشقاء ، وأشمت بهم الأعداء ، وليس ذلك في التعصب لذاته فقط مع ما فيه من الدمار ، ولكن لما ينشأ عنه من الفساد .

إنه نبتة خبيثة الطعم ، كريهة الرائحة ، وهو يثمر لا محالة ، ولكنه يثمر الفرقة والشتات ، والفتنة والعصبيات ؛ إنه يدفع بالمرء إلى السعي بالحق أو الباطل لدعم ذوي عصبته ، وإظهار حجته ، وتزويق طريقته ، ويدفع إلى التهجم على الآخرين ، والتنقص من المؤمنين ، والحمل على المخالفين ، كم خَبَت الدعوةُ بأسبابه؟ وكم فُتك بأربابه؟ وكم أبعد الحق عن نصابه؟ وأخرج سيف الغيبة والنميمة من جرابه؟

لقد بينا رأي الشيخ في التعصب الأعمى وتحذيره من مغبته ، وتنبيهه على خطورته ، ورأينا قوله بعدم الجواز ، يقول – رحمه الله – : « ولا يجوز التفرق والاختلاف ولا الدعوة إلى حزب فلان وحزب فلان ، ورأي فلان ، وقول علان ، وإنما الواجب أن تكون الدعوة واحدة إلى الله ورسوله ، إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، لا إلى مذهب فلان ، أو

---

(١) آل عمران : ١٥٩ .

دعـوة عـلان ، ولا إلى الحـزب الفـلاني ، والرأي الفـلاني ، يجب على المسلمين أن تكون طريقتهم واحدة ، وهدفهم واحد ، هو اتباع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

ولا يجوز أبداً التعصب لزيد أو عمرو ، ولا لرأي فلان أو علان ، ولا لحزب فلان أو للطريقة الفلانية ، أو الجماعة الفلانية ، كل هذا من الأخطاء الجديدة التي وقع فيها كثير من الناس» .

إن هذه العصبيات والحزبيات ذنب كبير يجب المبادرة إلى التوبة منه ، وإن الشيخ – رحمه الله – فرق في كلامه بين تعدد الجماعات وكثرة المنظمات ، وهي على رأي واحد ، ونهج واحد من الحب والتعاون والتآخي والتآزر ، وبين الجماعات التي تقوم على المنابذة والمفارقة ، والمباينة والاختلاف ، والتي يكون فيها وعليها ولأجلها الولاء والبراء، فهذه هي الممقوتة ، وتلك هي المذمومة .

وإنني أعجب من بعض المنطوين تحت بعض الرايات والمستظلين بظل عدد من الجماعات ، مع ما فيهم من الدين ، وما عندهم من العلم ، وما لهم من الجهود ، إلا أنهم لا زالوا يعيشون تحت سلطة عصبيات مقيتة ، وحزبيات بغيضة عن علم وعن غير علم ، بل وأعجب من ذلك أن يؤلف الواحد منهم كتباً ، أو ينشيء خطباً ، يحذر فيها من العصبيات ، ويندد بالحزبيات ، ويخلع القلوب بهول ما يسوقه من هول الغيبة وأكل لحوم المسلمين ، ويحذر من النيل من العلماء أو الدعاة أو المؤمنين عموماً ، ثم هو ينغمس في ذلك من رأسه إلى أخمص قدميه ، ﴿ **أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ**

﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[١] .

ويا عجباً لعدد من الدعاة وطلبة العلم الذين ذاقوا الفرقة ، واحتسوا كؤوس الخلاف المرة ، ومع ذلك لم يأن لقلوبهم أن تخشع لذكر الله وما نزل من الحق ، لقد أصبحت الكيانات المتناقضة ، والدول المتناحرة ، والعقائد المتصارعة ، تسعى جاهدة إلى الوحدة ، وتمضي لاهثة إلى الألفة، فكيف بأصحاب المبدأ الواحد وأرباب المنبع الصافي؟! يجب أن نعلم أننا لن ننتصر على من سوانا إلا بعد أن ننتصر على أنفسنا أولاً .

إن هذه السلبيات التي تطل برأسها من صفوف بعض الدعاة أو الجماعات ، يجب على الدعاة الناصحين أن يدركوا عظيم خطرها ، ويعرفوا قبيح أثرها ، ويثوروا عليها ، ويصرخوا في وجوه أصحابها ، وإن البشائر مقبلة ، والدلائل فرحة ، والإسلام قادم ، والحق منتصر ، ودعاة الإسلام النجباء ظهرت بركاتهم ، وعظم خيرهم ، وأثمرت جهودهم بفضل الله تعالى .

تخيل نفسك وأنت في مجلس ابن باز – رحمه الله – هل تجرؤ على الكلام في مسلم أياً كان ، ومن أي جماعة هو ، هل تستطيع أن تنال من عرضه أو تنتقص من قدره ، ومع ذلك فقد تكون في مجالس بعض طلبة العلم – لا أقول من عامة الناس – من أرباب الحزبيات ، ثم يذكر له أحد طلبة العلم أو العلماء أو الدعاة من جماعة أخرى أو يُنال منه ، أو يُسفَّه رأيه ، كم يكون عنده من الغبطة ، وكم يقطف من السرور ، بل ويدلي

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٤٤ .

بدلوه في الحديث .

ولكن إذا ذُكر أحدُ أفراد حزبه فهو الكمال بعينه ، والتقوى برمتها ، والإخلاص بشحمه ولحمه ، خطؤه صواب ، ونقصه كمال ، وقبحه جمال : ﴿ **وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾[١] .

ولقد أطلت في هذه السلبية لأنها رأس من رؤوس الدمار ، وفأس من فؤوس الانهيار ، ومرض فتاك ، وسرطان مخيف إن لم يبادر أطباء القلوب، وأمناء الوحي باستئصاله فلا أمل في انفراج ، ولا قيمة لعلاج ، قال تعالى : ﴿ **وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ** ﴾[٣] .

فؤادي لحسن الظن والعفو مرتع ... وميلي لأرباب القلوب التقية

---

(١) سورة المطففين ، الآيات : ١ – ٥ .
(٢) سورة الأنعام الآيتان : ١٥٢ – ١٥٣ .
(٣) سورة الشورى ، الآية : ١٣ .

وتأبى علي الخوض في عرض مسلم ... حروف تباهي بالدروب العلية
وكل ذوي الإيمان أهلي وإخوتي ... وإني عدو الكبر والعنصرية
على سنة المختار تمضي عزائمي ... ومن روعة القرآن فحوى وصيتي
أبث عبير العلم في كل موطنٍ ... على منهج يسمو بحسن الروية
رحيق الهدى يروي نفوساً صواديا ... وأركانه إخلاص حبي ونيتي
وأربو عن التجريح والعنف والهوى ... وأنبو عن التفريق والمذهبية
فما هذه في الناس إلا معاول ... تهدم أركان الصروح القوية
ومن سلسل الهادي وأتباع هديه ... يطيب زلال النهج والمرجعية

٥ - حب الرئاسة :

المؤمن يؤدي واجبه ، ويقوم بمسئوليته ، ويسعى لنصرة دينه ، ورفعة راية إسلامه ، يبذل الجهود ، ويسلك السبل ، ويتحين الفرص ، وهو لا يهمه في عمله ذلك أكان مرؤوساً أم رئيساً ، مأموراً أم آمراً ، همَّته واحدة سواءً كان في أول القوم أو في آخر الركب؛ لأنه يريد بعمله وجه ربه جل وعلا ، فخلصت نفسه ، وزكت سريرته ، وهاجرت النوازع والنوازغ من حنايا فؤاده ، فلم يبق إلا حب الله ورسوله ، والسعي لنصرة الدين وأهله، ورفعة الحق وذويه ، ولكن هنالك أناساً لا يروقهم التعامل ، ولا يؤمل منهم في التعاون إلا إذا أُعطوا مناصب مرموقة ، ومراكز مشهورة فإن أعطوا رضوا وعملوا وتعاونوا، وإن لم يعطوا إذا هم يسخطون فلا عمل ولا تعاون . واستشراف الرئاسة وحب الإمارة قد يجر إلى ذنوب عديدة ، وأخطار كثيرة ، من محاولة غمط الآخرين ، وتنقص العاملين ، واحتقار جهد الباذلين ، أو النيل من أعمال الجادين ، لكي يهيئ الأجواء

لأهوائه ، ويرتب الأمور لآرائه ، ولذلك كان من نهج النبي ﷺ أنه لا يعطي الإمارة من استشرفت لها نفسه ، وتطلع إليها قلبه .

إن العمل يجب أن يكون خالصاً لله تعالى لا لحصول رئاسة ، ولا لنيل شهادة ، ومن عمل عملاً أشرك مع الله فيه غيره فليذهب ليطلب ثوابه من عند غيره جل وعلا .

٦ - الحسد :

قال تعالى : ﴿**أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا**﴾[١] .

الحسد والغل والحقد .. كلها أدواء خبيثة ، وأمراض مخيفة ، إذا تمكنت من التسلل إلى فؤاد المرء ، حطمت إيمانه ، ودمرت أركانه ، وفرقت أعوانه ، وإن الحسد من أكبر هذه الأدواء ، وهو أول ذنب عصي الله به ، حيث حسد إبليس آدم فأبى السجود له ، ويكفي في هوله أنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، ولسنا هنا بصدد التفصيل في هذه الأمور ، ولكنها إشارات عابرة ، وتلميحات موجزة إلى بعض الأخطاء والأدواء التي قد يتلبس بها بعض الناس .

يقول ﷺ : « إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تنافسو ،ا ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا وكونوا

---

(١) سورة النساء ، الآية : ٥٤ .

عباد الله إخوانا »[١].

إن الحسد يقتل حسن التعامل ، ولطيف التعاون ، ويزرع الكره والبغضاء ، ويجلب الحقد والشحناء ، إنه من أخطر الذنوب لأنه اعتراض على الخالق ، ومهاجمة لأقدار الباري .

قال الجاحظ : « الحسد : هو التألم بما يراه الإنسان لغيره وما يجده فيه من الفضائل، والاجتهاد في إعدام ذلك الغير ما هو له ، وهو خلق مكروه وقبيح بكل أحد »[٢].

قال الماوردي : « حقيقة الحسد شدة الأسى على الخيرات تكون للناس الأفاضل »[٣]

إن الحسد إذا سكن في فؤاد فإنه لا يرتضي من جيران الإحسان أحداً، بل يطردهم جيمعاً ويرحب بجيران السوء ، وقرناء الباطل ، من الحقد والغيبة والنميمة والكراهية، فيجب على الدعاة والعلماء وطلبة العلم أن يُصَفُّوا نفوسهم ، ويزكوا أرواحهم ، ويطهروا أفئدتهم ، فلا تكون مأوى للحسد ، ولا ميداناً للغل ، ولا مسكناً للغش .

وإن من أعظم ما يُدفع به داء الحسد أن تمتلئ القلوب بالمحبة ، وأن تُفعم الأنفس بالمودة ، وأن يفشي المؤمن السلام بين إخوانه ، السلام بمفهومه الواسع ومعناه العميق ، وليس مجرد كلمة تقال . إن إفشاء السلام يجب أن يكون صورة للقلب الذي يحمل لإخوانه كل أنواع

---

(١) البخاري ، الفتح (١٠ / ٦٠٦٦) ، ومسلم (٢٥٦٣) واللفظ له .
(٢) تهذيب الأخلاق ، ص : ٣٤ .
(٣) أدب الدنيا والدين ، ص : ٢٦٠ .

السلام ، وألوان المودة والاحترام ، ولذلك يقول ﷺ : « دَبَّ إليكم داء الأمم : الحسد والبغضاء ، هي الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين ، والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أفلا أنبئكم بما يثبت ذاكم لكم؟ أفشوا السلام بينكم »(١) .

إن سلامة الصدر مطلب كبير ، ومرتقى شريف ، لا يصله إلا العظماء من المحسنين : ﴿ **وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ (٢) .

يقول ﷺ حينما سئل : أي الناس أفضل؟ ، قال : « كل مخموم القلب ، صدوق اللسان » ، قالوا : صدوق اللسان نعرفه . فما مخموم القلب؟ قال : « هو التقي النقي . لا إثم فيه ولا بغي ولا غل ، ولا حسد »(٣) .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كُنّا جلوساً مع رسول الله ﷺ ، فقال : « يطلعُ عليكم الآن رجل من أهل الجنة » فطلع رجلٌ من الأنصار ، تَنْطف لحيتُه من وَضُوئه ، قد تعلق نعليه في يده الشمال ، فلما كان الغدُ قالَ النبيُّ ﷺ مثلَ ذلك، فطلع ذلك الرجلُ مثل المرة الأولى ، فلما كان اليوم الثالث قال ﷺ مثل مقالته أيضاً ، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى ، فلمّا قام النبي ﷺ ، تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقال : إني لاحيْتُ أبي ، فأقسمتُ أن لا أدخُل عليه ثلاثاً ، فإن رأيت أن

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي (٢٥١٠) واللفظ له ، وصححه الألباني .

(٢) سورة آل عمران : ١٣٤ .

(٣) رواه ابن ماجة : ٤٢١٦ .

تؤويني إليك حتى تمضي ، فعلتُ . قال : نعم .

قال أنس : وكان عبدُ الله يُحدّث أنه بات معه تلك الليالي الثلاث فلم يره يقوم من الليل شيئاً ، غير أنّه إذا تعارّ وتقلّب على فراشه ذكر الله عز وجل ، وكبّر ، حتى يقوم لصلاة الفجر ، قال عبد الله : غير أني لم أسمعه يقول إلا خيراً ، فلما مضت الثلاث ليال ، وكدت أن أحْقِر عمله، قلت : يا عبد الله ، إني لم يكن بيني وبين أبي غضبٌ ولا هجر ثمَّ ، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرار : « يطلع عليكم رجل من أهل الجنّة » فطلعت أنت الثلاث مرار ، فأردت أن آوي إليك ، لأنظر ما عملك ، فأقتدي به ، فلم أرك تعمل كثير عمل ، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ ؟ فقال : ما هو إلا ما رأيت . قال : فلما وليت دعاني، فقال : ما هو إلا ما رأيت ، غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشّاً ، ولا أحسد أحداً على خيرٍ أعطاه الله إياه . فقال عبد الله : هذه التي بلغت بك ، وهي التي لا نُطيق »(١) .

٧ - جهود مبعثرة :

إن من أكبر مشكلات الدعوة ، وأعظم أدوائها ، تلك الجهود المبعثرة، والأعمال المبددة ، والعطاءات الفوضوية . إن تعامل الدعاة والعاملين للإسلام ينقصه توحيد الجهود ، وتنظيم الأمور ، وترتيب العطاءات .

إن أعمال العاملين للإسلام وعطاءاتهم عطاءات مباركة ، وأعمال

---

(١) مسند الإمام أحمد ٣/١٦٦ .

موفقة ، وجهود جبارة ، ولكن الذي يُضعف قدرها ، ويقلل حجمها ، وينقص ثمارها هو هذا التناثر .

ولو نظمت الجهود ، وتكاتفت الأيدي ، وتوحدت المسارات لرأيت ما يسر الخاطر، ويثلج الصدر ، ويبهج الفؤاد ، وينفع العباد ، فإن « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » .

لماذا السلبيات؟

قد يلاحظ بعض القرّاء أننا صوبنا سهام النقد على كثير من السلبيات ، فهنالك سلبيات التعاون مع الولاة ، وهنا سلبيات التعاون مع الدعاة ، إضافة إلى الحديث عن كثير من التجاوزات في ثنايا هذا البحث فما الفائدة من ذلك؟ .

فنقول : إننا في هذا البحث أردنا أن نعرض الصورة المشرقة ، والنجاح المتألق لسماحة الشيخ – رحمه الله – فلا بد من ذكر ما يقابل ذلك من ملاحظات ومخالفات للتأكيد على سلامة النهج الذي سلكه ، والسبيل الذي طرقه وتابعه فيه جماهير أهل العلم والعاملين للإسلام ، هذا من جهة ، أما الجهة الأخرى : فإنني على يقين أن علماءنا ودعاتنا في هذه البلاد المباركة بالذات قد ضربوا المثل الأعلى ، ورسموا المنهج الأسمى ، وكانوا قدوة تحتذى ، فالغالب فيهم الصواب ، والسائد من أفعالهم الفلاح والنجاح . علم نافع ، ونهج ناصع ، وتآخٍ رائع . نهج سلفي ، وتوجه إيماني محمدي . عم خيرهم وعظم برهم ، وفاح عطرهم . إنهم محط أنظار المسلمين في أنحاء الدنيا ، ومحل آمال المخلصين في

شتى البقاع ، ولكن الأمة العاملة ، والقوم الجادين ، والدعاة الباذلين ، لا بد أن يقع لهم في هذا العمل العظيم ملاحظات معدودة ، وأخطاء محدودة ، وكفى المرأ نبلاً أن تعد معايبه .

إن هذا اجتهاد يسير ، وعمل متواضع ، ذُكر في ثناياه بعض الأخطاء والملاحظات لكي يتجنبها العاملون ، ويتنبه لها السائرون في تعاملهم وتعاونهم مع ولاة أمورهم وإخوة مسيرتهم من العلماء والدعاة والعاملين للإسلام .

وإنني أشهد الله على محبتي الصادقة ، ومشاعري المخلصة ، وتقديري العميق لكل داعية إلى الله ، ولكل عبد من عباد الله يمضي على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ .

وإنني أشهد الله عز وجل أنني لا أجد في قلبي غلاً ، ولا حقداً ولا حسداً على مسلم ، فضلاً عن داعية أو طالب علم أو عامل للإسلام ، بل إنني أتقرب إلى الله بحبهم ، والسير في ركابهم : ﴿ **وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** ﴾ .